الدكتور صالح أحمد العلي

الفتوحات الإسلامية

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر





شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

شارع جان دارك ـ بناية الوهاد

ص. ب. ٨٣٧٥ ـ بيروت ـ لبنان

تلفون: ٣٥٠٧٢٢ (٠١)

تلفون + فاكس: ٣٤٢٠٠٥ ـ ٣٥٣٠٠٠ (١ ٩٦١)

e-mail: allprint@cyberia.net.lb

الطبعة الأولى ٢٠٠٤

تصميم الغلاف: عباس مكي

الاخراج الفني: بسمة التقي

وكان لكلٍّ من الأمراء والحكام المحليين جيش خاص بهم يقومون بإعداده وتدريبه والنفقة عليه، وهو يأتمر بأوامرهم وينفذ أغراضهم، وإذا أعلن كسرى حرباً عامة فإن كلا من هؤلاء الأمراء يقدم جيشه للقتال مع جيش الملك. فجيش الدولة مكون من جيش الملك وجيوش الأمراء المحليين المتعددين.

الروم البيزنطيون

نشأت الدولة الرومانية من التوسع التدريجي الذي قامت بها روما خلال ثلاثة قرون واستطاعت أن تسيطر على شبه جزيرة إيطاليا ثم على الأقاليم الواقعة حول البحر المتوسط، فأصبحت تهيمن على أقاليم غنية لكثير منها حضارات قديمة. وقد جلبت لها هذه الأقاليم الثروة والغنى، فنشطت فيها الحياة الاقتصادية والفكرية، وازدهر العمران.

غير أن سعة الدولة الرومانية جعل لها حدوداً برية طويلة يتطلب الدفاع عنها اهتماماً خاصاً. وقد تأمنت الحدود الشرقية لتلك الدولة بفضل الحاميات الرومانية التي وضعت في بعض المدن الشرقية، وبعد أن أعلن أغسطس «السلم الروماني» الذي اعتبر فيه الرومان نهر الفرات الحد الشرقي لدولتهم، أعلنوا توقفهم عن التوسع، واتّباعهم سياسة سلمية مع جيرانهم في الشرق. وظلت هذه السياسة سائدة، بصورة عامة، حتى أواسط القرن الثالث للميلاد عندما ظهر الساسانيون وحاولوا التوسع نحو البحر المتوسط.

أما أطراف الحدود الجنوبية لأملاك الدولة الرومانية في أفريقية فكانت تحميها أطراف الصحارى الواسعة الخالية من السكان، والتي لم تكن مصدر خطر يهدد الدولة الرومانية.

غير أن الدولة الرومانية لقيت مصاعب كثيرة في حماية حدودها الشمالية الطويلة، فوراء تلك الحدود كانت تقطن الشعوب الجرمانية وهم قبائل غير متحضرين، ولكنهم كانوا مقاتلين أشداء، ولذلك كانوا يهددون الأطراف الشمالية للدولة. وعلى الرغم من الحملات المتعددة التي أرسلت لإخضاعهم،

والمستعمرات الرومانية التي أقاموها على تلك الحدود لحمايتها، فإن الرومان لم يفلحوا في السيطرة عليهم.

وبهذا فإن الدولة الرومانية، وبعد استقرار حدودها، واجهت كثيراً من المشاكل الاقتصادية والاجتماعية، فضلاً عن المتاعب العسكرية التي كان يخلقها لها هؤلاء الجرمان.

وحاول عدد من الأباطرة الرومان القيام بإصلاحات لمعالجة هذه المشاكل، ومن أبرزهم دقليانس (٢٨٤ ـ ٣٠٥) الذي قام بعدة إصلاحات مالية وإدارية، من أهمها أنه جعل للامبراطورية حاكمين متساويين في السلطة، أحدهما يقيم في روما ويشرف على الأقاليم الغربية، والثاني يقيم في بيزنطة ويشرف على الأقاليم الشرقية؛ وكان قصد دقليانس من ذلك تيسير إدارة الدولة، ولكن تنظيمه لم ينجح في ضمان التعاون بين الحاكمين، الشرقي والغربي، ما أدى في أخيراً إلى انشطار الامبراطورية إلى شطرين متباينين.

والواقع أن الجانب الغربي من الامبراطورية كان يعاني من الاضطرابات الداخلية، ومن تهديد الجرمان الذين ازداد تغلغلهم في الدولة وتهديدهم لها حتى استطاعوا سنة ٣٥٣م أن يستولوا على روما وينهوا حكم الرومان فيها.

أما الجانب الشرقي فكان سكان أقاليمه متنوعين، ففيهم الإغريق اليونانيون ويسكنون في مدنهم الكثيرة المنتشرة في جزيرة اليونان وفي السواحل الشرقية من آسيا الصغرى، وقد احتفظ هؤلاء الإغريق بالثقافة الإغريقية، وظلوا يتدارسون الفلسفة اليونانية. وفي شرق الأناضول كان يقيم الأرمن الذين كانت لهم حضارة قديمة ودولة قوية أزالها الرومان، لكن حضارتهم بقيت مزدهرة. وفي الأقاليم الجنوبية كان العرب يسودون في جنسهم ولغتهم وثقافتهم، وخصوصاً في أقاليم الجزيرة الفراتية والشام وفلسطين، كما كان المصريون وسكان شمال أفريقية قد احتفظوا بحضارتهم وتقاليدهم العريقة.

ازدهرت الزراعة والصناعة والتجارة في هذه الأقاليم الشرقية ونمت فيها المدن، وتقدمت الحركة الفكرية، وقد ساعد على هذا الازدهار والتقدم انتشار الأمن فيها. فقد كانت حدودها آمنة، لم يهددها إلا الساسانيون في الشرق

والسلاف في الغرب، ولكن هؤلاء لم ينجحوا في تشكيل خطر أساسي على الدولة البيزنطية.

وتميزت الأقاليم الشرقية بِقِدَمِ وسَعَةِ انتشار المسيحية فيها. والمسيحية هي الدين الذي بشّر به السيد المسيح، الذي كان قد ظهر في فلسطين واتّبعه عدد من الناس ثم ارتاب به الحكام الرومان وحكموا عليه بالصلب قبل أن تكتمل تعاليم الدين المسيحي أو يستطيع تكوين دولة مسيحية. وقد انتشر أتباعه في مختلف البلاد وصاروا رسلاً يبثون تعاليمه ويشرحونها، ودوّن كلٌ منهم تعاليم المسيح وأقواله وسيرته، فكانت أناجيل يتداولها الناس. وتابع الحكام الرومان اضطهاد المسيحيين وعملوا على قمع المسيحية، ولكنها مع ذلك تابعت دعوتها بصورة سرية وخصوصاً في الأقاليم الشرقية حيث ازداد انتشارها وكثر أتباعها، بين العامة، وأصبحوا قوة لا يمكن تجاهلها، فاضطر حكام تلك الأقاليم إلى التوقف عن اضطهادها، ثم اعتنقوها هم أنفسهم وبذلك صارت ديناً رسمياً للدولة.

غير أن المسيحية بعد أن أصبحت ديناً رسمياً، بدأ كبار رجالها يبحثون في طبيعة المسيح وعلاقته بالله تعالى، فرأى بعضهم أن المسيح إله، ورأى آخرون أنه إنسان فيه روح الإله، ورأى فريق ثالث أن المسيح إنسان في الأرض إله في السماء، واختلفوا أيضاً في مكانة مريم أم المسيح، فرأى بعضهم أن لها صفة قدسية، ورأى بعضهم أنها امرأة محترمة لأنها حملت المسيح فحسب، وقد اشتد بينهم الخلاف وظهرت فيهم الفرق، فحاول بعضهم نشر أفكاره في الأقاليم البعيدة عن العاصمة، فحازت تلك الأفكار تأييد كثير من النصارى في تلك الأقاليم بدافع من اعتقادهم أو نكاية بالملوك. وهكذا أصبحت هذه الفرق المسيحية تعبّر عن الاختلافات العنصرية والقومية والحضارية بين أبناء أقاليم الدولة الشرقية، فأيد معظم سكان الجزيرة الفراتية النسطورية، وأيد الغساسنة ونصارى الشام اليعقوبية، وأيد المصريون الملكانية، وأهل تونس الآريوسية، حتى أصبح الخلاف بين هذه الفرق على أشدّه ومصدر خطر لإضعاف الدولة. ويلاحظ أن الأقاليم كافة، التي يقطنها العرب في الشام، وكذلك مصر وتونس، لم تعتنق المذهب الذي اعتنقه أهل العاصمة القسطنطينية، الأمر الذي يظهر عدم تأييدهم لها.

تعرّضت الأطراف الغربية للدولة البيزنطية لتهديدات وأخطار من قِبَل البلغار والسلاف الذين تقدموا في القرن الرابع للميلاد من جهات روسيا، وهاجموا الدولة البيزنطية، لكنهم أخيراً استقروا في البلقان فخف خطرهم على الدولة.

أما في الشرق فإن الساسانيين اتّبعوا منذ بداية تكوين دولتهم سياسة توسعية، وحاولوا الوصول إلى البحر المتوسط، ولتحقيق ذلك شنّوا عدة حروب دامية، لكنهم لم يحرزوا فيها نجاحاً كبيراً. وفي السنة الثامنة لبعثة الرسول (ص) هاجم الساسانيون الدولة البيزنطية، واستولت جيوشهم على بلاد الشام وفلسطين ومصر، كما توغلت في آسيا الصغرى حتى اقتربت من القسطنطينية. غير أن هرقل، وكان حاكماً على تونس، تقدم إلى القسطنطينية وأعلن نفسه امبراطوراً، ثم قاد حملة سريعة تقدمت من شرق آسيا الصغرى إلى طيسفون عاصمة الساسانيين، فشهرابان التي تبعد حوالى ٧٠ كيلومتراً عن العاصمة. واضطرّ الساسانيون إلى تَرْكِ البلاد التي فتحوها وسَحْبِ جيوشهم للدفاع عن عاصمتهم. وبذلك أنقذ هرقل الدولة البيزنطية من الانهيار.

ثم حاول هرقل معالجة الخلافات الدينية، فابتدع عقيدة تجمع آراء مختلف الفرق المسيحية، لعلهم يجتمعون عليها. ولكنهم عملياً عارضوها جميعاً، فزادت في فرقتهم بدل أن تنجح في توحيدهم.

كان الساسانيون الخطر الرئيسي الذي يهدّد بلاد الدولة البيزنطية في آسيا، وكانت معظم حملاتهم تتقدم من منطقة الجزيرة الفراتية إلى إنطاكية، أو تتجه جنوباً إلى دمشق، ولذلك عني البيزنطيون بتنظيم دفاعاتهم في الجزيرة الفراتية وشمال بلاد الشام. أما الأطراف الجنوبية الشرقية المشرفة على البادية فلم يتوقعوا منها خطراً مهدِّداً، لذلك اكتفوا بإقامة نقاط مراقبة متباعدة، في كلٍّ منها قوة عسكرية صغيرة، معتمدين على علاقاتهم الوثيقة بالقبائل المقيمة في بادية الشام، وعلى دولة الغساسنة التي ساندوها وثبتوا معها علاقات وثيقة فأمنت لهم هذه الحدود، غير أن هذه العلاقات ضعفت قبيل تقدُّم الجيوش الإسلامية، ولعل توغل الجيوش الساسانية في بلاد الشام وفلسطين هو الذي ضعضع دولة

الغساسنة، فلما استعاد هرقل سيطرته على هذه الأقاليم كان جلُّ اعتماده على حسن علاقته بالعشائر العربية، وخصوصاً المقيمة في الأطراف الجنوبية من بلاد الشام وفلسطين والأردن. وعلى الرغم من تأخّر اسلام هذه العشائر، فإنها لم تندفع في مساندة الروم، فلما تقدمت الحملة الإسلامية على مؤتة كان الحاكم البيزنطي هو الذي تصدّى لها، ولا بدّ أنه اعتمد على جيشه الرومي في التصدي. وبذلك كانت الحدود الشرقية والجنوبية للدولة غير محكمة التحصين ومكشوفة لتقدُّم الجيوش الإسلامية.

أخذ هرقل موقف الدفاع أمام تقدُّم الجيوش الإسلامية، ولم يحاول استغلال حركات الردة والانشقاق لتحدي دولة الإسلام، كما أنه لم يقم بهجوم عليها وينقل المعركة إلى أراضيها كالذي فعله مع الساسانيين عندما قاد حملة توغلت في بلادهم وهددت عاصمتهم.

ثم إن هرقل لم يقم بنفسه في إدارة المعارك مع المسلمين، وإنما اتخذ مقرَّه في مدن بعيدة عن ميدان المعركة، وكان يعيّن قادة من المتصلين به لمواجهة العرب.

كما اختار للمعارك ضد العرب مناطق زراعية تقيِّد المناورة وتعيق الانسحاب وتعرِّض جيشهم للتطويق والإفناء. واعتمد على مقاومة المدن التي كان أكثرها محصناً، إلا أن ولاء أهلها له لم يكن مضموناً. والواقع أن معظمهم كانوا من أرومة عربية، ممن يعتنقون المذهب اليعقوبي المخالف للمذهب الذي يتبناه، وفيهم عدد من اليهود أيضاً، ولما كانت نفقات جيوشه قد أرهقتهم، لم يتحمسوا لمقاومة العرب، واستسلمت المدن للمسلمين بعد حصار قصير لم يبدِ أهلها خلاله مقاومة عنيدة.

وتجدر الإشارة إلى أن المعارك الكبيرة التي قادت إلى فتح بلاد الشام حدثت كلُّها في أشهر الدفء التي تعوَّدها العرب، ولم تحدث أيٌّ منها في أشهر البرد التي ربما لم تكن تلائمهم.

العرب في جزيرتهم

كانت شبه جزيرة العرب، بحكم موقعها الجغرافي، تقع بين دولتَي الفرس والروم، لا تفصلها عن أيٍّ منهما حواجز جغرافية معرقلة، وهذا ما يسَّر اتصالاتها بهما، فكانت القوافل تسلك الطرق المتعددة التي تخترق شبه الجزيرة إلى كلتا الدولتين، كما كان التجار والمبشِّرون النصارى منهما يتغلغلون فيها. وقد حاولت كلٌّ من هاتين الدولتين أن تكوِّن مع أهل شبه جزيرة العرب علاقات سياسية مباشرة أو بواسطة دولتَي المناذرة والغساسنة اللتين والت كلٌّ منهما إحدى الدولتين. غير أن هذه العلاقات لم تصل إلى الحد الذي يجعل أياً منهما يحكم شبه جزيرة العرب حكماً مباشراً، اللهم إلا مناطق محدودة في أطراف شبه الجزيرة، كالبحرين واليمن، اللتين كانت الدولة الساسانية قد سيطرت عليهما سيطرة ضعيفة محدودة الأثر ولمدة قصيرة من الزمن.

وظلت شبه جزيرة العرب بعيدة عن السيطرة الأجنبية المباشرة، ولم تؤدِّ اتصالاتها المتعددة إلى أن يكون للمؤثرات الأجنبية فيها تأثير واسع أو عميق. والواقع أن أثر شبه الجزيرة في الأقاليم المجاورة التابعة للفرس والروم كان أظهر وأقوى من أثر هاتين الدولتين فيها، حيث إن الهجرات الفردية والجماعية، والاتصالات المستمرة جعلت تلك الأقاليم سامية الجنس، عربية اللغة، وجعلت ثقافة الفرس والروم أجنبية منعزلة فيها.

لقد ربطت أهل شبه جزيرة العرب لغة عربية واحدة فصحى وعامة تعبِّر عن ثقافة غنية، فضلاً عما كان لهم من نُظُم وعادات ومُثُلٍ اجتماعية ترجع إلى أزمنة سحيقة وتستند إلى أصول عرقية خالصة نظراً لقلة هجرات الأجانب إلى شبه الجزيرة.

غير أن شبه جزيرة العرب عند ظهور الإسلام كانت تفتقر إلى دولة واحدة تجمع أهلها وتهيمن على حكمها وتنظِّم إدارتها. لذلك كانت مفككة سياسياً، كما أن الحياة الاقتصادية فيها لم تكن مزدهرة، ما عدا بعض المدن والواحات المتفرقة[1].

---

(١) انظر تفاصيل أوفى في كتابنا «تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية».

لقد أدى فقدان السلطة المركزية العامة، وقلة الموارد الاقتصادية إلى اضطراب الأمن وتزايد أخطار الغزو، وهذا ما دفع بالسكان إلى التدرب على القتال، والحروب. كما أن شظف العيش فيها جعلهم مدربين على تحمُّل المشاق وعلى والاكتفاء بالغذاء القليل، كما أن تطرف مناخ الجزيرة درّبهم على القتال في مختلف أنواع الأراضي والمناخات، ولم يكن يعيقهم إلا الجبال والثلوج التي لم يكونوا قد تعوّدوا القتال فيها.

أسلحة العرب

لم تكن الدولة في أول الإسلام تصنع السلاح ولم تكن تزود مقاتلتها به، فكان كل مقاتل يجهز نفسه بما يحتاجه من سلاح مما كان يتوافر فيها، ولذلك كانت أسلحتهم تتنوّع بتنوُّع أحوال شبه الجزيرة.

كانت السيوف من أهم الأسلحة، وكانت متنوّعة، بعضها مما يصنع في شبه الجزيرة وبعضها مما يستورد من الخارج، وقد اشتهرت من سيوفهم السيوف اليمانية، والهندية، والمشرفية، والدمشقية، والحنيفية. أما الرماح فكانت أغلبها من الخيزران، وكثير منها مما يستورد قصبه من الهند.

ذكر الجاحظ وصفاً لأسلحة العرب بالمقارنة مع أسلحة الفرس فقال «إنما كانت رماحكم من مران، وأسنتكم من قرون البقر، وكنتم تركبون الخيل في الحرب أعراء، فإذا كان الفرس ذا سرج فسرجه رحاله من أدم، ولم يكن ذا ركاب.. وكان فارسهم يطعن بالقناة الصماء، وقد علمنا أن الجوفاء أخف حملاً وأشد طعنةً، ويفخرون بطول القناة.. ويفخرون بطول الرمح وقصر السيف، وكنتم تتخذون للقناة زجاً وسناناً.. وكنتم تساندون في الحرب، وكنتم لا تقاتلون بالليل ولا تعرفون البيات ولا الكمين ولا الميمنة ولا الميسرة ولا القلب ولا الجناح ولا الساقة ولا الطليعة ولا الدراجة، ولا تعرفون من الحرب الرتيلة ولا العرادة ولا المجانيق ولا الدبابات ولا الخنادق ولا الحسك ولا تعرفون الأقبية ولا السراويلات ولا تعليق السيوف، ولا الطبول، ولا البنود،

الفصل الثاني

دوافع الفتوح

ماهية الدوافع

نقصد بدوافع الفتوح المؤثرات والقوى التي تدفع الأفراد أو الدول للتحرك والقيام بالفتوح، وهذه الدوافع تتعدّد وتتنوّع وتعمل على دفع الأمة وأفرادها للتحرك، إلا أن محركها يتطلب أحوالاً غير الدوافع، فسوء الأحوال الاقتصادية في مجتمع ما يعيش قرب مجتمع ينعم بالثروة لا يكفي أن يكون وحده دافعاً محركاً. والواقع أن كثيراً من المجتمعات ظلّت أمداً طويلاً في حالة مزرية من الفقر مستكينة قانعة بوضعها دون أن تحاول تبديله. ولا يصحّ اعتبار الثروة العظيمة والرخاء الذي أعقب الفتوح دليلاً على أن الفتوح الإسلامية حدثت بدافع اقتصادي لأن الذين قاموا بها لم يكونوا يدركون النتائج الكبيرة التي أحدثتها تلك الفتوح.

ودراستنا للدوافع ما هي إلا دراسة استنتاجية، لأن كتب التاريخ التي لم تذكر إلا الحوادث والتطورات دون أن تذكر الدوافع التي لم يصلنا عنها إلا نصوص قليلة منوّعة وملاحظات عابرة متباينة.

ولا بدّ أن الفتوحات الإسلامية، شأنها شأن كل الحركات الكبيرة في التاريخ، كانت لها مؤشرات متعددة يمكن إدراكها بالمقارنة مع مثيلاتها في المجتمعات الأخرى. ولا يكفي في التاريخ تعداد العوامل المؤثرة فحسب، بل ينبغي تقييم هذه العوامل وتقدير الأهم منها. وهذا التقييم يعتمد على رأي

المؤرخ وحُكْمِه، ويتصل بالفلسفات العامة التي يرتبط كثير منها بالعقائد السياسية، لذلك كان مثار نقاش وجدل، وخصوصاً أنه قائم على التأصيل والاستنباط أكثر من اعتماده على ما دونته الأخبار التي في كثير منها تناقض وتحيُّز، ويقتصر على وصف الظواهر دون الإمعان في الكوامن وحقائقها. والواقع أن تفسيرات متعددة لمجرى التاريخ صاغها وعرضها الفلاسفة وعلماء النفس، وحاول بعض المؤرخين تطبيقها، غير أن هذه التفسيرات جاءت متعددة ومتناقضة، ولم ترتفع إلى مستوى العلم الثابت، لا سيما أن علم النفس الذي يتوقف عليه البتُّ في هذه الأمور لما يزل غير مكتمل.

ومن المعلوم أن التاريخ يدرس التبدلات، ويهتم بإبراز محاولات الإنسان الخروج عن حالة الركود والخضوع للطبيعة، وقلما يعرض دوافعه لتلك المحاولات

ومن الصعوبات التي تواجه الباحث في تحديد دوافع الفتوح تقرير الجهة التي كان لدوافعها أقوى الأثر في توجيه الحوادث، فمن المعلوم أن التاريخ يدرس نشاط الإنسان الذي يعيش في المجتمع، غير أن الناس يتنوّعون كثيراً، ودوافعهم الفردية تتنوّع بتنوع عقلية وأحوال كلٍّ منهم، ولا بدَّ أن عيشهم ضِمْنَ الجماعة يوجِّههم نحو سلوك جمعي يتّسم بطابع خاص واتجاهات عامة، وقد يطغى على أحوالهم وتوجُّهاتهم الفردية.

ولكل حركة تاريخية كبيرة هيئة حاكمة ترسم أهدافها وتنظِّم نشاطات الأفراد والجماعات، وتدفعها للتحرك نحو الجهة التي تريدها. وبذلك يتوجه السلوك الفردي والجماعي نحو الهدف الذي ترسمه الهيئة الحاكمة.

نظريات في الدوافع

ازداد الاهتمام في الأزمنة الحديثة بدراسة العوامل المؤثرة في سَيْرِ التاريخ، وظهرت في الموضوع دراسات متتالية، افترضت مبدئياً أن الأحداث التاريخية بالرغم من تنوُّعها، فإن فيها اتجاهات عامة تنظمها وتعبِّر عن سَيْرِها، فهي

كالقوانين الجبرية التي تنظِّم سَيْرِ البشرية، ولكنهم اختلفوا في القوة الرئيسة الموجهة لسَيْرِ الأحداث، فمنهم من ردَّها إلى العوامل العرقية، ومنهم من عزاها إلى العوامل الجغرافية، أو الاقتصادية، أو الدينية. وقد حاول أغلب هؤلاء المفكرين إرجاع سَيْرِ التاريخ إلى عامل وحيد أو رئيس.

إن النظريات والآراء المتعلقة بتفسير التاريخ أو تقرير العوامل المؤثرة في مجراه تكوّن شطراً كبيراً من الأبحاث التي ندعوها فلسفة التاريخ. وأن اعتبارها فلسفة هو مظهر من اعتمادها على التأمل والشعور دون التجارب والاختبارات التي هي الأساس المميِّز للعلم، فهي آراء مثيرة ولكنها لم ترقَ إلى مستوى الحقائق المثبتة، فهي أدخل في الفلسفة منها في العلم لأنها قائمة على دراسة سلوك الإنسان وأعماله؛ وميدانها علم النفس وهو علم حديث نسبياً لما تكتمل بحوثه لعوامل متعددة، أبرزها صعوبة دراسة تكوين اللاشعور ودوره الذي له أثر فعّال في تقرير سلوك الفرد وردود فعله.

حاول بعض علماء النفس المحدثين إرجاع سلوك الفرد إلى عامل واحد رئيس، ولكنهم اختلفوا في تقرير هذا العامل؛ فيرى فرويد وأتباعه أن الغريزة الجنسية هي القوة الرئيسة التي تؤثر في سلوك الإنسان والمجتمع، ويرى أدلر أن حب السلطة والاعتزاز بالقوة هما الدافع الأكبر الموجِّه لسلوك الفرد، بينما يرى يونغ أن حب السلطة هو القوة الرئيسة المسيِّرة للإنسان. وكلٌّ من هذه النظريات وما يماثلها تدخل اللاشعور في حساب دراساتها، وترجع سلوك الإنسان إلى عامل واحد.

والواقع أن سلوك الأفراد يتأثر بعوامل متعددة، ولكلٍّ فرد غرائز وميول متعددة، ومن الخطأ القول بأن سلوك الفرد يرجع إلى عامل واحد، فالإنسان يخضع إلى دوافع متعددة وقد يتصرف الفرد بسلوك معيَّن في وقت معيَّن متأثراً بعامل معيَّن يختلف عن العامل الذي يؤثر في سلوك آخر. وقد تشترك عدة دوافع في تقرير سلوك ما، الأمر الذي يتطلب تقدير الأهمية الحقيقية والدور الصحيح لكلٍّ من هذه العوامل.

إن دراسة العوامل المؤثرة في سير الأحداث التاريخية، ومنها أحداث التاريخ الإسلامي، لا تزال دراسة تأملية فلسفية قُدِّمت عنها نظريات قابلة للنقاش ولمّا تصل مرحلة الجزم بعد، ولكن يمكن التأكيد على أن لكل حدث عوامل متعددة، وأن من مقاييس نضج البحث مراعاة مختلف العوامل، مع تقدير دقيق لقيمة كل عامل وأثره في التوجيه العام.

إن موضوع تفسير التاريخ وبيان علل ودوافع حوادثه لمّا تُسْتَوْفَ دراستهما بعد، إذ إن الأقدمين اهتموا بسرد الحوادث فقدَّموا عنها معلومات وافية اعتمدها المحدثون في دراسات نقدية عميقة، أما عِلَلُ الحوادث ودوافعها فقد قصر القدماء فيهما على إبداء ملاحظات عابرة وأفكار متناثرة تصلح أن تكون مادة أولية للباحثين. ولم يكتب أحد منهم بحثاً شاملاً متماسكاً في الموضوع غير ابن خلدون في مقدمته الرائعة.

دوافع الفتوح الإسلامية

تطرَّق عدد غير قليل من المحدثين إلى بحث دوافع أحداث التاريخ الإسلامي أو بعضها، ومنها دوافع الفتوح الإسلامية. بعض هذه البحوث التي قام بها كتّاب مهتمون بدراسة العقائد والاتجاهات السياسية، اتسمت بفرض آرائهم على تاريخ الإسلام دون أن تكون ناجمة عن اطلاع شامل على أحداث التاريخ واستنباط دوافعها.

وعرض بعض المستشرقين أفكاراً عن عِلَلِ الأحداث، تميَّز فيها اتجاهان رئيسان في تفسير دوافع الفتوح الإسلامية، أولهما: التفسير الاقتصادي، وثانيهما: التفسير الديني[1].

(١) Cambridge Medieval History II P.

الدافع الاقتصادي

كان أبرز من أكد على الدافع الاقتصادي في الفتوح الإسلامية كارل بيكر وليون كايتاني، فأما بيكر فقد عرض رأيه باقتصاب في الفصل الذي كتبه عن الفتوح الإسلامية وخلاصة رأيه: أن الفتوح الإسلامية أدت إلى السيادة السياسية للعرب فحسب، إذ إن العرب لم يجبروا أحداً على اعتناق الإسلام، واكتفوا بأخذ الجزية ممن لا يريد اعتناقه، وأن الاندفاع العربي لم يكن مفاجئاً، إذ إن الهجرات العربية من الجزيرة إلى الأقاليم المجاورة كانت قائمة منذ أزمنة قديمة، وكان مردُّها إلى التدهور الاقتصادي الذي كانت تعانيه جزيرة العرب، وأن الدافع الحقيقي للفتوح كان الجوع والحاجة، أما الدين الإسلامي فقد خلق حماساً في المقاتلة وتنظيماً للحركة، وتوحيداً في إدارتها. وأسند رأيه إلى عدد من النصوص التي وردت في بعض كتب التاريخ العربية، منها ما ذكره البلاذري أن أبا بكر بعد أن قضى على حركات الردة وعزم على توجيه الجيوش إلى الشام «كتب إلى أهل مكة والطائف واليمن وجميع العرب بنجد والحجاز يستنفرهم للجهاد ويرغبهم فيه وفي غنائم الروم، فأسرع الناس إليه بين محتسب وطامع، وأتوا المدينة من كل أوب»[1] ويروي الأهدل أن أبا بكر كتب إلى أهل اليمن يستنفرهم وكان مما كتب إليهم «سارعوا عباد الله إلى فريضة ربكم وإلى إحدى الحُسْنَيَيْن: إما الشهادة وإما الفتح الغنيمة»[2]. ويذكر الطبري أنه عندما عزم عمر بن الخطاب على فَتْحِ العراق وتردَّد الناس في التوجه إلى العراق «فلم يزل بهم ويأبون عليه حتى عزم على ذلك وجعل لهم ربع خمس ما أفاء الله على المسلمين إلى نصيبهم من الفيء». ويروي الطبري أيضاً أن رستم قال للمغيرة بن شعبة قبيل نشوب معركة القادسية «قد علمت أنه لم يحملكم على ما خضتم إلا ما أصابكم من الجهد في بلادكم»[3]، فأجابه المغيرة «وأما

---

(١) فتوح البلدان ١٠٧؛ معجم البلدان لياقوت ٢/٥١٥.

(٢) الأموال ١٠٧؛ الوثائق السياسية ٣٠٢

(٣) الطبري ١/٢١٨٦.

الذي ذكرته فينا من سوء الحال وضيق المعيشة وأخلاق القلوب فنحن نعرفه ولسنا ننكره»[١].

ويلاحظ أن معظم من انضمَّ إلى جيش الفتوح في خلافة أبي بكر هم ممن أسلم بعد الفتح، أي إنهم لم تكن لهم صلة سابقة بالرسول (ص)، أما في خلافة عمر فقد انضمَّت أعداد كبيرة ممن كانوا قد ارتدوا إبان خلافة أبي بكر.

أما كايتاني[٢] فقد قدم أوسع شرح لدافع الاقتصادي في الفتوح الإسلامية؛ وخلاصة رأيه أن الجزيرة العربية كانت في العصور الجيولوجية الحديثة منطقة خصبة، فيها أمطار غزيرة وأنهار كثيرة ومراع واسعة، وأن وديانها الكبيرة، كوادي حوران، ووادي سرحان، ووادي الرمة، ووادي الدواسر كانت مجاري أنهار غزيرة المياه يصبُّ بعضها في نهر الفرات وبعضها في الخليج العربي وأن جنة عدن كانت في جزيرة العرب.

ويورد كايتاني نصوصاً كثيرة من المصادر القديمة تذكر ما كان في بعض مناطق الجزيرة العربية من دببة وحيوانات نهرية، وما كان فيها من مياه ومزروعات، ولا سيما في اليمامة، وتذكر هذه النصوص أن مئات القرى كانت في فلسطين والأردن والحجاز.

ويشير كايتاني أيضاً إلى أن النقوش المصرية تذكر أن تحوتمس الثالث قام باصطياد الفيلة في شمال بلاد الشام، وأن النقوش الآشورية تذكر أن بعض الملوك الآشوريين كانوا يصيدون الفيلة في جبال لبنان وفي حرّان التي تقع في أعالي الفرات. هذا بالإضافة إلى كثرة صُوَرِ الأسود في النقوش الآشورية والتي تدل على كثرة تواجد هذا الحيوان في شمال العراق زمن الآشوريين. ولا بدَّ أن هذا يدل على أن المناخ في تلك المنطقة كان، آنذاك، مناخاً ممطراً، وأن الزراعة كانت كثيفة، في حين أن هذه المنطقة اليوم قليلة الأمطار والمزروعات، وخالية من تلك الحيوانات.

---

(١) الطبري ١/٢٢٧٦.

(٢) عرض كايتاني أفكاره في كتابه Annali Del Islam وكذلك في كتاب Studi della Storia Orientali

ويقول كايتاني إن المناطق العربية من الحجاز كانت غنية بالمزارع، آهلة بالسكان، وإن الغابات والمزارع كانت تغطي معظم أراضي الحجاز وإن سكانه كانوا أربعة أضعاف ما هم عليه اليوم، وأن وادي القرى كانت فيه عشرات القرى المأهولة.

ويرى كايتاني أن جزيرة العرب بدأت تتعرّض لتبدلات كبيرة في المناخ، فقلّت أمطارها، وشحّت مياهها، وتناقصت مزارعها، وانخفضت مواردها، فلم تعد تكفي لإعاشة أهلها الذين أخذوا يهاجرون بسبب الفاقة والجوع إلى الأقاليم الغنية المجاورة. وقد بدأت هذه الهجرات منذ آلاف السنين، وكان بعضها محدوداً، وبعضها واسع النطاق، وأدت هذه الهجرات إلى جعل الأقاليم المجاورة للجزيرة عربية في لغتها وثقافتها وفي كثير من مظاهر حياتها

غير أنه منذ القرن الخامس قبل الميلاد ظهرت في الأقاليم المجاورة للجزيرة العربية إمبراطوريات قوية سيطرت على الحدود وقلّلت الهجرات إليها، فانحصر العرب في جزيرتهم وتفاقمت مصاعب الحياة فيهم وزاد شقاؤهم، وفي خلال ذلك تزايد الجفاف في الجزيرة وتناقصت مواد المعيشة. ثم كوّن العرب في أطراف العراق وبلاد الشام دولاً مستقرة أقامت علاقات طيبة مع الامبراطوريات التي تحكم العراق والشام والتي عملت بدورها على استغلال هذه الدول في تأمين سيطرتها على الحدود ومنع تجاوزات أهل الجزيرة على تلك الأقاليم، وهذا ما حدَّ من هجرات العرب. غير أن هذه الدول العربية أزيلت قبل الإسلام، ورافق زوالها ضعف الفرس والروم وتناقص مواردهما فلم تعد لأيٍّ منهما الأموال الكافية لصرفها على ما يضمن تأمين الحدود، وعلى أثر هذا، ازدادت تحركات القبائل العربية وتجاوزاتها على حدود تينك الامبراطوريتين.

في هذه الأحوال ظهر الإسلام في مكة ثم اتخذ مركزه في المدينة، وكلاهما مركز حضري، غير أن الرسول (ص) استطاع بعد جهود كبيرة ضمّ العرب إلى الإسلام وتوحيدهم في ظل دولته، وبذلك جلبوا إلى الإسلام

حيويتهم ونشاطهم، ولكنهم لم يتفهموا المبادىء التي كان يدعو إليها الرسول (ص)، ولم يتشبعوا بروح الإسلام، بدليل أنهم سرعان ما ارتدوا بعد وفاة الرسول، ولم تتم عودتهم إلى الإسلام إلا بعد أن استعمل أبو بكر القوة لإعادتهم إلى حضيرة الدولة الإسلامية، فكوّنوا بعد ذلك عظم الجيوش الإسلامية التي قامت بالفتوح، ونجحت بفضل حيويتهم وحماسهم، وقد عاونهم إخوانهم العرب القاطنون في أطراف دولتَي الفرس والروم. واستطاعوا بعد انتصاراتهم الرائعة عليهما أن يزيلوا معظم الأديان التي كانت سائدة في السابق، ويحلّوا الإسلام محلها، كما أنشأوا نظاماً مستقراً ازدهرت فيه الحضارة والفكر.

لقيت نظريات كايتاني قبولاً عند عدد من المستشرقين، غير أن عدداً من العلماء أخذ على كايتاني عدم دقته في بعض المعلومات التي أوردها، وانتقد آخرون الأحكام التي استنبطها. ومن أبرز من انتقده الرحالة آلوا موزيل الذي أخذ على كايتاني أخطاءه في تثبيت المواقع الخصبة في الجزيرة واعتباره منطقة النفوذ منطقة جرداء تسفوها العواصف الرملية، ومبالغته في وصف بعض الأماكن، كمنطقة بطرا، ووادي القرى، والبحرين، بأنها جرداء.

ومما أخذه موزيل على كايتاني أنه عزا انهيار سد مأرب وغيره من سدود اليمن إلى تبدّل المناخ وأنه بالغ في أثر هذا الانهيار على الهجرات العربية. ويرى موزيل أن جزيرة العرب لم تكن في حالة الإجداب التي صوّرها كايتاني وأن هيمنة دولتَي الفرس والروم لم تكبّل العرب، بل ظلوا محتفظين بدورهم في التجارة العالمية التي كانت تدرُّ عليهم أرباحاً وتوفر لهم العيش، وكذلك الواحات الواسعة الغنية في الجزيرة التي كانت تموّن معظم سكان الجزيرة بالمواد الغذائية.

ويرى موزيل أن الجزيرة لم تكن تعاني الفاقة ولكنها كانت تفتقد حكومة قوية بعيدة النظر، كما أنها لم تفقد السدت، إذ كان فيها مراعٍ واسعة ومزارع حول الآبار الكثيرة

وقدم هنري لامنس في كتابه بالفرنسية «مهد الإسلام» وفي كتابه عن الطائف معلومات واسعة عن الازدهار الزراعي في الحجاز عند ظهور الإسلام؛ وقد عرضت في بحثي عن الزراعة في منطقة المدينة معلومات غير قليلة عن مناطق الزراعة في أطراف المدينة لا بدَّ أن أصول كثير منها ترجع إلى ما قبل الإسلام.

ويلاحظ أن أهل اليمن شكّلوا نسبة ملحوظة من الجيوش الإسلامية منذ زمن خلافة أبي بكر، ولا يوجد ما يدل على أن الأحوال الزراعية في اليمن كانت آنذاك متدهورة، علماً بأن كثيراً من هؤلاء المقاتلة القادمين من اليمن كان كثير منهم من جند الأذواء، ومدربين على القتال بأساليب تختلف عن أساليب غارات البدو.

الدافع الديني في الفتوح الإسلامية

نقصد بالدافع الديني مدى دور الدين الإسلامي في تنظيم وتوجيه ودفع العرب للقيام بالفتوح. ومن المعلوم أن العرب كانوا قبل ظهور الإسلام قبائل مفككة يقاتل بعضهم بعضاً، ويقومون بالغزو والغارات على بعضهم دون هدف واضح أو غاية بعيدة، الأمر الذي أرهقهم واستنزف قواهم وأبقاهم مفكّكين. فلما جاء الإسلام نظّمهم جميعاً في طاعته وأخضعهم لسلطة مركزية واحدة لا تقرُّ الغزو أو القتال بين القبائل، وقد نسّق الإسلام قوات العرب ووجّهها نحو غاية واحدة هي التقدم نحو الخارج، فكان العامل الأكبر في استخدام الطاقة الهائلة للعرب ضد الدول الخارجية.

ثم إن الإسلام وضع للحروب غاية سامية، فلم تعد مجرّد غزوات للحصول على مغانم مادية وقتية، بل أصبحت فتوحاً لإعلاء كلمة الإسلام والدين، وهي غاية سامية تخصُّ المصلحة العامة للجميع وليس لمصلحة فرد معيَّن، وهي غاية بعيدة.

ثم إن فكرة الآخرة التي أكد عليها الإسلام كانت تدفع الناس إلى الانخراط

في القتال والصمود في الحرب وعدم تهيُّب الموت، لأن الذين يُقتلون في سبيل الله يذهبون إلى الجنة وهم ﴿أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران]، هذا فضلاً عن أن الاعتقاد بالله الواحد الحق المؤيد للمسلمين بنصره والحامي لدينه، من شأنه أن يزيد الثقة في قلوب المحاربين ويقوّي معنوياتهم.

وتتجلى قوة الدافع الديني في الفتوح، في الرسائل التي وجَّهها الخليفة أبو بكر لدعوة الناس إلى المشاركة في الفتوح من أجل إعلاء كلمة الله. ومن المعلوم أن الخلفاء الأولين تشبَّعوا بآراء الرسول (ص) وتابعوا سياسته التي كانت تهدف إلى نشر الإسلام وإعلاء كلمة الله، وليس الحصول على مغانم مادية، ومظهر ذلك أنه لم يهتم كثيراً في الجباية، ولم تصله موارد كبيرة بعد توسع الدولة الإسلامية، وكذلك الأمر في خلافة أبي بكر، فلو كان غرضه الحصول على المغانم لكانت الجباية أوسع بكثير مما كانت عليه في الواقع

دوافع المقاتلة العرب

إن دراسة دوافع الأفراد المقاتلة المشاركين في الفتوح دراسة غير يسيرة، وذلك لكثرة عدد المقاتلة وتنوُّع المناطق التي قَدِموا منها من جزيرة العرب واختلاف أحوالهم ونُظُمِهم باختلاف أحوال المناطق وحداثة عهد معظمهم بالإسلام، وقصر الوقت الذي مضى على اعتناقهم الإسلام وانضمامهم إلى الجيوش وتوجُّههم رأساً إلى ميادين القتال دون أن يمروا بمرحلة توجيهية. وقد ترسَّخت هذه السِّمة عندما سمح عمر بن الخطاب للمرتدين بالانضمام إلى الجيش الإسلامي، مما قوى حجة القائلين بأن الدافع الرئيس للفتوح كان الحصول على الغنائم، حيث أصبح معظم الجيش الإسلامي مكوَّناً من البدو الذين أسلموا مؤخراً وكانوا قد ألِفوا استهداف الغنائم من الحرب. ومن الأدلة التي استند إليها هؤلاء الدارسون أن الإسلام يقرُّ للمنتصر الحصول على الغنائم التي تُوَزَّعُ على المقاتلة، وكذلك ذكر الكتّاب نصوصاً دعى فيها الخلفاء الأولون، القبائل إلى المشاركة في الفتوح ومنّوهم بما سيحصلون عليه من الغنائم.

غير أنه يجب أن نلاحظ إلى جانب حداثة إسلام البدو الذين كوّنوا معظم جيش الفتوح، أن روح الجماعة، وسيكولوجية المجموع، تدفعان كثيراً منهم إلى الحماس في القتال بدافع من هذه الروح ولغرض إظهار البطولة والشجاعة بصرف النظر عن أي دافع آخر، فالعواطف الملتهبة، ونزعة حب القتال في الجند هي أقوى من إذكاء الحماس في الأمل بالحصول على الغنائم.

دوافع القيادة العليا الموجهة

عند دراسة الحركات العامة ودوافعها ينبغي أن نولي أهمية خاصة لموقف السلطات العليا الموجِّهة لهذه الحركات، لأنها القوة الكبرى التي تحرك الجيوش وتوجه الفتوح وتؤثِّر في حنق وتحريك روح الجماعة التي تطغى على الدوافع الفردية المتعددة والمتشعبة، علماً بأن المصادر نقلت عن مواقفهم معلومات واسعة تيسّر تكوين فكرة أوضح.

ومن المعلوم أن القيادة العليا الإسلامية كانت تتجلى في الخليفة ومن يحيط به من الصحابة في المدينة. ويتبين لنا من خلال دراسة حياتهم قلة اهتمامهم بالمال وجمعه. فموارد الرسول والدولة الإسلامية في زمنه كانت قليلة جداً[1]، وكذلك الحال في خلافة أبي بكر، علماً بأن الدولة كانت تشمل رقعة واسعة فيها مناطق غنية يؤدي استغلالها إلى جمع أموال أكثر بكثير مما تذكره المصادر وتؤيده الأحوال. ولو كان هدف الخلافة المال لكانوا اهتموا بإنشاء نظام لجمعه ولتشددوا فيه ولحصلوا على أموال طائلة من خلال ذلك، وهو ما لم تذكره المصادر.

والواقع أن السّمة البارزة للخلافة والصحابة كانت التوسع وتحرير البلاد الأخرى لتكوين دولة تكون فيها كلمة اللّه هي العليا ولجعل الإسلام يسودها بصرف النظر عن مدى انتشار الإسلام وعدد من يعتنقه.

---

(١) انظر الفصل الخاص بالمالية في كتابنا «الدولة في عهد الرسول (ص)»

وكان الطابع المميِّز للخلافة والصحابة اعتزازهم بالدين، وحماسهم لفكره وتمسكهم به باعتباره القوة الجامعة والرابطة القوية ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران] وقد خلق فيهم الدين ثقة في النصر، وإيماناً في العقيدة، وقوة منبعثة من إيمانهم بالحق، وقتالهم من أجل الحق، وأن الله العليّ العظيم ناصرهم ومؤيدهم.

الفصل الثامن

بلاد الشام عند الفتح الإسلامي

الأرض

تكوّن بلاد الشام، وهي ما نسمّيه اليوم سوريا ولبنان وفلسطين والأردن، الجناح العربي من الهلال الخصيب، وتحدها من الشمال جبال طوروس التي تفصلها عن هضبة آسيا الصغرى، وتتصل أطرافها الشرقية ببادية الشام المكملة لصحراء جزيرة العرب، ولا يفصلهما أي عارض جغرافي.

يحدُّ بلاد الشام من الغرب البحر الأبيض المتوسط الذي يمتد على طول سواحله الشرقية سهل ضيق خصب فيه كثير من المدن التي كانت مرافىء للملاحة، ومراكز للتجارة والصناعة. وقد كوّنت معظم هذه المدن علاقات ملاحية وتجارية مع مختلف البلاد الواقعة على شواطىء البحر الأبيض المتوسط كافة في أوروبا وإفريقية.

تخترق بلاد الشام من الشمال إلى الجنوب سلسلة جبال لبنان وهي موازية لساحل البحر الأبيض وقريبة منه، وتفصل السهول الساحلية عن المناطق الداخلية وتعرقل المواصلات بينهما.

أما القسم الداخلي من بلاد الشام فأراضيه متموجة، وفيه سهول واسعة أهمها مرج راهط، وسهل البقاع والغوطة وسهول وادي الأردن. ويجري في

هذه المنطقة عدد من الأنهار، وأهمها نهر العاصي في الشمال، ونهر بردى في الوسط، ونهر الأردن في الجنوب. كما تعزز فيها الأمطار الشتوية، فتوفر المياه للزراعة التي ازدهرت منذ القديم، وخصوصاً أشجار الفكهة والزيتون والكروم والخضروات.

المدن والصناعات والحياة الحضرية

ظهر في هذه السهول منذ أقدم الأزمنة عدد غير قليل من المدن مثل حلب وحماه وحمص ودمشق وبعلبك وبصرى، وصارت هذه المدن مراكز لصناعات مهمة كالمنسوجات والأصباغ والزجاج والزيت والخمور والأسلحة، وكانت هذه المصنوعات في غالبيتها تصدّر إلى البلاد الأخرى، ومنها جزيرة العرب والحجاز الذي كان يستورد منها بصورة خاصة الزيوت والخمور ومختلف أنواع السيوف ومنها المشرفية والدمشقية والصفائح البصرية. وقد أدى هذا إلى نمو الحياة الحضرية وقوة الطبقة الوسطى في بلاد الشام، وإلى ظهور نظام إداري محكم تكوّن نتيجة خبرات طويلة واستقر في هذه المدن التي أصبحت كل منها تتمتع باستقلال ذاتي كبير في إدارتها. ويبدو أن الضرائب المفروضة عليهم لم تكن كبيرة، فكانوا مرفهين اقتصادياً. ويلاحظ أن العرب عند فتحهم بلاد الشام عقدوا مع المدن معاهدات صلح تسري أحكام كل منها على المدينة المصالحة وما حولها، أما في العراق فلم تذكر مثل هذه المعاهدات مع المدن، باستثناء ما عقدوه مع أهل الحيرة وبانقيا والّيس.

استولى الرومان على بلاد الشام وضموها إلى دولتهم في القرن الأول قبل الميلاد وأقاموا في بعض مدنها حاميات عسكرية، ولكنهم لم يفلحوا في تغيير أحوال أهلها، فظل أهلها من العرب محتفظين بلغتهم وعاداتهم وتقاليدهم، واستمروا يزاولون نشاطهم الاقتصادي في الزراعة والصناعة والتجارة، وأفادهم موقعهم الجغرافي فلم يتعرضوا لهجمات البرابرة، ولم تقلقهم الفتن والثورات

التي أضعفت روما. ولما ظهر الدين المسيحي اعتنقه معظم أهل الشام[1].

ولما انقسمت الدولة الرومانية إلى قسمين أصبحت بلاد الشام من أقاليم القسم الشرقي الذي كانت عاصمته القسطنطينية، ولكنهم ظلوا محتفظين بنشاطهم الاقتصادي وبلغتهم وثقافتهم السامية وانتشرت بينهم من المسيحية مذاهب تخالف المذاهب التي اعتنقها أهل القسطنطينية.

ولم يتعرض القسم الشرقي إلى غزوات الجرمان الذين قضوا على القسم الغربي من الامبراطورية الرومانية. وكان في الأطراف الغربية من القسم الشرقي البلغار والسلاف الذين يعكرون صفو الأمن في أملاكها في أوروبا بخاصة، ولكنهم لم يهددوا كيانها. أما أطرافها الشمالية فكان البحر الأسود ولم يشكّل سكان أطرافه الشمالية أخطاراً جدية على الدولة. وفي أطرافها الشرقية سلاسل جبلية شاهقة وممتدة، ففقدت قدرتها على تهديد الدولة بعد انقراض دولة الصدق[2].

وكان الخطر الأكبر الذي يهددها من الفرس الذين كانوا يطمحون إلى مدّ دولتهم إلى البحر الأبيض المتوسط؛ وقاموا بغزوات متقطعة كان آخرها ما حدث في أوائل سني البعثة، حيث استولوا على بلاد الشام ومصر، وتوغلت جيوشهم إلى أن قربت من القسطنطينية، لكن هرقل قضى على تقدّمهم، وأجبرهم على الانسحاب[3].

وقسم الرومان إدارة بلاد الشام إلى ثلاثة أقسام: أهل المدن والريف والأعراب.

---

(1) انظر كتاب «المدينة الإغريقية» لجونس، ترجمة إحسان عباس، وهو فصل من مدن بلاد الشام من كتاب أوسع

(2) لا تزال دراسات بيورى عن تطورات الأحوال في أواخر الدولة الرومانية، وفي الدولة البيزنطية من أوسع الدراسات رغم قدمها

(3) انظر إيران في عهد الساسانيين لكرستنسن، ترجمة يحيى الخشاب

تتصل بلاد الشام ببادية الشام وبأطراف الحجاز الشمالية ولا يفصلها أيٌّ من الحواجز الطبيعية، من سلاسل جبال أو أودية أو أنهار، لذلك فإن حدود الدولة كانت تمتد إلى مناطق تسكنها الجماعات التابعة للروم، فالحدود مرتبطة بالناس وممتدة إلى حيث امتدوا ومن هنا كانت هذه الحدود غير ثابتة المعالم.

وكان أكثر بلاد أهل الشام عرب في أرومتهم غير أن تطور الأحوال جعلت السكان أهل مدن وريف، فأما المدن فإنها ورثت النظم الإغريقية والرومانية التي تتحدد فيها المدن بموجب القوانين، وتكون لها امتيازات ونظم تسير عليها في إدارتها؛ وقد أبقى المسلمون بعد توسع دولتهم ما كان للمدن من نظم، وفي هذا يذكر البلاذري «قال أبو يوسف إذا كان في البلاد سنّة أعجمية فليس للإمام أن يغيّرها، وقال الشافعي بل يغيّرها إذا كانت ضارة»[1]. والراجح أن المقصود بالسنّة هنا النُّظم التي كانت تسير عليها المجتمعات المحلية، وأن القيد الذي رآه الشافعي عليها هو في حالة إضرارها بالناس أو بالدولة.

ويقول ابن عساكر «لا خلاف بين الأئمة من سلف هذه الأمة أن كل بلد صولح أهله على الخراج المعلوم أنه لا يجوز تغيير ما استقر عليه من الرسوم»[2].

وكانت القيود التي يُروى أن عمر بن الخطاب فرضها على أهل المدن تتعلق بالألبسة وبعض السلوك، وإنشاء الكنائس وكل ما يتحدى عبادات المسلمين، وما يتعلق بملكيات الأراضي، ولم يَرِدْ ذكر في أيٍّ منها إلى طلب تبديل للنُّظم، لهذا يمكن القول بأن المدن احتفظت بنظمها القديمة في تنظيماتها الإدارية، وأن التغيير الذي حدث فيها يرجع إلى التطورات السلمية الوئيدة التي حدثت فيها. ولعل من أبرز الاختلاف بين فتوح العراق وفتوح الشام هو أن العرب تعاملوا في بلاد الشام مع مدن وعقدوا مع كلٍّ منها معاهدات منفردة، وإن كانت نصوص الكثير منها متشابهة.

---

(١) فتوح البلدان ٤٤٧

(٢) تاريخ دمشق ١/٥٧٥

كوّنت كل مدينة وحدة يعزّزها النظام الإداري المستقر على أسس التقاليد القانونية. ولا ريب في أن قوام الحياة فيها على التجارة والأنشطة المعاشية، وكذلك على ما فيها من متطلبات إدارية وعكرية تميّزها من الريف والبداوة وأهل هذه المدن حضريون، غير مدربين عسكرياً، ولم تذكر في أيٍّ منها حاميات أقيمت أيام السلم. ولا بد أن أصول هؤلاء السكان قديمة ومرتبطة عرقياً بأهل جزيرة العرب، لكن ذلك لم يمنع وجود جاليات أجنبية أقيمت فيها بصورة دائمة أو مؤقتة لتمارس نشاطها التجاري والمالي في الأغلب، غير أن السمة الحضرية هي البارزة.

كما أن توجهاتهم الثقافية تختلف عن الدول الحاكمة التي يشيع فيها استعمال اللغة الإغريقية ولم تذكر المصادر تركيب سكان أيِّ مدينة في بلاد الشام والجزيرة ما عدا بعلبك التي ذكرت معاهدتها مع أبي عبيدة أن أهلها عرب وروم وفرس[1]

تفسر هذه الأوضاع كثيراً من مجريات حوادث فتح بلاد الشام، فالمعارك الرئيسة جرت في الأراضي الواسعة خارج المدن، وبعيدة من بعضها. والمدن التي ظهرت فيها مقاومة محدودة هي دمشق وقيسارية وحمص وبعض مدن الجزيرة، وقد اعتمد العرب في مقاومتهم هذه على القوات التي جلبت إليها من مناطق أخرى بسبب ظروف القتال، أما الأهالي فلا تدل الأخبار على مشاركتهم في القتال، وكانوا أوثق صلة برجال الدين الذين فاوض كثير منهم العرب على الاستسلام وذكر البلاذري أن العرب حاربوا بصرى، وأن أهلها صالحوا العرب، وعلى مثل صلحها صالح أهل مآب[2] وحوران والبثنية وعُمان[3]، كما صالحوا أهل طبرية[4]، وفتحوا بيسان، وسوسية، وأفيق، وجرش وبيت راس،

(١) انظر نص المعاهدة في كتاب «الوثائق السياسية في زمن الرسول (ص) والخلافة الراشدة» لمحمد حميد الله ٥.
(٢) فتوح البلدان ١١٤.
(٣) فتوح البلدان ١٢٥.
(٤) فتوح البلدان ١١٥.

والقدس والجولان وعكا وصور وصفور[1] ونابلس وبيت جبرين وإيليا[2] وحماه وشيزر وقيسارية. ويروي الأزدي أن أهل فحل قالوا للمسلمين عن الروم إن هؤلاء قد غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا[3] وقال أهل حاضر قنسرين، نحن عرب وقد حشرنا مع الروم ولم يكن من رأينا حربكم[4]

أما أهل الريف فلا بد أن غالبيتهم، إن لم يكونوا كلّهم، من أهل جزيرة العرب، غير أن استقرارهم وعملهم في الأرض باعد بين نُظُم حياتهم ونُظُم العشائر العربية التي كان أكثر مساكنها في الأطراف الخارجية لبلاد الشام، ونُظُمهم أقرب إلى نُظُم أهل البدو، وعلاقتهم بأهل البادية تتوقف على مدى قدرة السلطة المركزية على ضبطهم فإذ ضعفت هذه السلطة ازدادت تجاوزاتهم على أهل الريف بخاصة، وإذا كانت السلطة المركزية مهيمنة فتقل التجاوزات، وكثيراً ما يستقر أهل البادية ويعملون في الزراعة فتتحول حياتهم بشكل تدريجي.

أما الأطراف الشرقية والجنوبية من بلاد الشام فكانت متصلة بالصحراء، ومع أن فيها كثيراً من الآبار فمياهها أقل من أن تكفي لازدهار زراعي واسع، لذلك قلت فيها المزارع والقرى وكان أكثر أهلها أعراباً تتسم حياتهم بما للبداوية من خصائص وأبرز هذه العشائر هي لخم وجذام وغسان وكان أكثرهم يدين بالنصرانية لذلك كثيراً ما كانوا يسمونهم العرب المتنصّرة

عشائر بلاد الشام

لما كانت بلاد الشام متصلة في أطرافها الغربية بشمالي الحجاز وبادية الشام، فإنها أصبحت مفتوحة على جزيرة العرب التي تمدهم بالسكان منذ أقدم الأزمنة، واستقر كثير منهم في المناطق الزراعية والمدن فطوّروا بعض نُظُمهم

---

(١) فتوح البلدان ١١٥.
(٢) فتوح البلدان ١٣٧.
(٣) فتوح البلدان ١٤٠
(٤) الأزدي ١١١

وحضارتهم تبعاً للمتطلبات الجديدة، ولكنهم احتفظوا بمظاهر العروبة في أسمائهم وأسماء مدنهم ولغتهم وما يتصل بها من ثقافة. أما البادية فيحتفظ أهلها بالنُّظم البدوية وكانوا يحيون حياة عشائر الجزيرة ويعتمدون في معاشهم على منتوجات مواشيهم، وما تنتجه الأرض من شحيح الخيرات. وقد يكوّنون علاقات مع المدن القريبة منهم، وخصوصاً مع جماعاتهم التي تستوطن الريف والمدن، وقد يغيرون على أهل الريف، وخصوصاً عند ضعف هيمنة الدولة، وقد سمّتهم المصادر السريانية «طيية» أو الطائيين وسمّتهم المصادرُ الرومانيةَ المشركين[1].

وأبرز العشائر العربية في أطراف بلاد الشام عند مجيء الإسلام كانت طي وتنوخ في الشمال عند قنسرين وحلب، والضجاعم وسليح في أطراف حماه، وكلب في الأطراف الغربية بين تدمر وحوران والغوطة حتى بصرى، وبلقين في حوران والبثنية، ولخم بين الرملة والحمار في جنوب فلسطين، وجذام بين البلقاء والأردن وتمتد إلى جبل حسمى على طريق إيلة، وهو بين مزارة وجذام، وبليّ في أطراف خليج العقبة وعذرة بين الحجر ووادي القرى[2].

عملت الدول التي حكمت بلاد الشام على إقامة علاقات طيبة مع العرب من أهل البادية في أطراف الشام، وذلك لتأمين السلام في أطراف بلادها، وللإفادة منهم في صد الأخطار التي قد تهددها من هجمات أعدائها ولا سيما الفرس، وكانت تعمل على استرضاء رؤساء هذه العشائر، فساند البيزنطيون الغساسنة في إقامة دولة هيمنت على العشائر المقيمة في بلاد الشام. والواقع أن الغساسنة شاركوا معهم في مقاتلة الفرس، ولا بد أن هذه المساندة أضعفتهم إبان سيطرة الفرس على بلاد الشام عندما غزوها لدى ظهور الإسلام، فلما استعاد الروم البلاد لم يعيدوا للغساسنة دولتهم، ولكنهم احتفظوا بعلاقات طيبة معهم.

---

(١) انظر كتاب «أديب» لسيجال، ومقالاحدث حول بعض حوادث العلاقات بين العرب والروم» لفازلييف والمدن سوريا الجنوبية بين العرب والروم، وطريق التجارة العالمية» لروجي باري.

(٢) انظر دوسو العرب في بلاد الشام قبل الإسلام (الترجمة العربية)، عبد الله الوهيبي، شمال الحجاز.

وانتشرت بين عرب الشام النصرانية التي كانت دين دولة الروم، لكن أكثرهم اعتنق اليعقوبية وهو مذهب يخالف معتقد الحكام الروم، وكان هذا من عوامل ضعف الصلة بينهم وبين الروم.

ثم إن النصرانية لم تتغلغل في نفوس القبائل العربية، فكان أكثرها نصرانياً بالاسم والظاهر، ولذلك لم يكن للدين أثر قوي في توثيق روابطهم مع الروم، وكذلك لم يكونوا متحمسين في تأييد الروم ضد العرب المسلمين، وإنما انحاز كثير منهم إلى العرب المسلمين وقاتلوا الروم[1].

تطلق المصادر العربية على عشائر بلاد الشام التي اعتنقت النصرانية «المستعربة»[2] و«عرب الروم»[3] و«عرب الضاحية» و«العرب المتنصرة»[4] وكانت مواقفهم العامة متطورة تبعاً للأحوال، فهم لم يمتنعوا في البداية من إبداء بعض التعاون مع الروم، غير أنهم بدأوا يتحلّلون عنهم ويميلون إلى المسلمين ثم قاتلوا مع المسلمين، وهذه المواقف العامة لم يكن يلتزم بها الأفراد كافة، كما أن أخبارها مقصورة على إسهامهم في قتال المسلمين فحسب؛ وكانت أبرز العشائر في أطراف الحجاز الشمالية عذرة وسعد هذيم وبلي والقين.

وأول احتكاك للرسول (ص) بهذه العشائر حدث في السنة السادسة للهجرة لما بدأ يرسل السرايا إلى العشائر القاطنة في الأطراف الشمالية من الحجاز، لأن أفراداً منها اعتدوا على رسله أو على تجارات المسلمين، وفي الوقت نفسه قدمت الرسول (ص) أفراد من هذه العشائر ويمكن القول إن سلطة الإسلام في آخر حياة الرسول (ص) كانت ممتدة على عشائر قضاعة، بما فيها بلي وسعد هذيم وعذرة وكلها كانت تقطن الحجاز، وفي أطراف دولة الروم ولكنها ليست في الدولة.

---

(1) انظر مقال عبد القادر حريسات في وقائع المؤتمر الثاني لبلاد الشام
(2) انظر مثلاً الطبري ١/٦١١، ٦١٧؛ فتوح سيمان ٨١٦٧؛ ابن أعثم ١/١١٢، ١٣٢.
(3) الطبري ١/٢٠١٨
(4) انظر ابن عساكر ١/٥٣١؛ ابن أعثم ١/١٢٤، ١٨٦، ٢٤٤

قاتل بعض العرب المتنصّرة مع الروم في غزوة مؤتة التي كانت حملة موجهة ضد الروم، وقام بتنظيم صدهم ثيودور حاكم فلسطين وعاونه في مقاتلة المسلمين بعض العرب المستعمربة «من لخم وجذام وبلقين وبهراء وبلي وكان قائدهم مالك بن رافلة»[1]، ووقع فيها كثير من القتلى من بني ثعلبة من حدس[2].

ولم تتصل القبائل العربية المتنصّرة التي ديارها في الأطراف الشمالية من البادية بالإسلام وذكر أنهم ساندوا أكيدر حاكم دومة في قتال المسلمين عندما أرادوا ضمها إلى دولتهم[3].

ولما تقدّم خالد بن سعيد بجيشه المتوجه إلى الأطراف الجنوبية الشرقية من الأردن ضرب الروم البعوث على عرب الضاحية بالشام وجمعوا منهم جيشاً من بهراء وكلب وسليح وتنوخ وجذام وغسان، واجتمعوا دون زيزاء بثلاث ففرّقهم خالد[4].

لم يَرِدْ ذكر مقاومة لهؤلاء المتنصّرة لجيش عمرو بن العاص عندما توغل في فلسطين إلى أطراف غزة، ويروي ابن الأعثم أن أهل البلاد من نصارى العرب قد وعدوا الروم وضمنوا لهم المعاونة، وشارك هؤلاء المتنصّرة في القتال، غير أن أنباط الشام، وهم فلاحون، قدموا مع المسلمين الروم في معركة فحل، وكانوا أمْيَلَ إلى المسلمين لبرّهم بهم وصلتهم إياهم، فكانوا فيوجاً للمسلمين وجواسيس[5]. ويدل هذا الموقف السلبي لأهل المدن على أن الجيوش العربية لم تلقَ مقاومة من كل العرب المتنصّرة.

تضعضعت ثقة المتنصّرة بالروم بعد أجنادين فانضم عدد منهم إلى العرب في

---

(١) الطبري ١/ ١٦١٢

(٢) الطبري ١/ ١٦١٨.

(٣) الطبري ١/ ٢٠٦٥.

(٤) الطبري ١/ ٢٠٨١؛ ابن عساكر ١/ ٤٥١.

(٥) ابن أعثم ١/ ٩٨؛ تاريخ الأردن ١١٠.

معركة فحل[١]. وشاركوا في اليرموك فكان في ميمنة المسلمين عشائر اليمن «قضاعة ولخم وجذام»[٢]. وأسلم كثير من المتنصرة وانضموا إلى المسلمين ومن أبرزهم أبو الشمس زيد بن الأسود، وكان لهم شرف بالشام[٣].

جبلة بن الأيهم

الشخصية البارزة الوحيدة التي يتردد ذكرها عن المتنصرة المؤيدين للروم هو جبلة بن الأيهم الغساني، وأول ذكر له في حوادث حصار المسلمين دومة الجندل حيث جاء «في طوائف من غسان وتنوخ» لمعاونة حاكمها الأكيدر ضد المسلمين، وقاتل جبلة عياصاً فيها[٤]، ولم يذكر أنه كان آنذاك ملكاً، مما يدل على أن دولة الغساسنة أزالها الفرس عند غزوهم بلاد الشام، ولم يُعدها الروم لكن العلاقة ظلت طيبة بين الغساسنة والروم.

وذكر ابن أعثم أنه قبيل معركة اليرموك أقام «جبلة بن الأيهم في الغوطة من أرض دمشق في أربعين ألف من العرب المتنصرة»[٥] ولكن لم يذكر له دوراً في المعارك الأولى قبل معركة اليرموك التي ذكرت المصادر دوره فيها، فذكر ابن إسحاق أن «أمداد اليرموك من المستعربة لخم وجذام وبلقين وبلي وعاملة وقضاعة إثنا عشر ألفاً عليهم جبلة»[٦]، وأكثر هذه العشائر من بلاد فلسطين التي لم يمتد إليها سلطان الغساسنة، وقد يرجع هذا إلى أن هرقل جلبه إليه دون أن يعيد له سلطانه، وجعله على المقدمة[٧].

---

(١) الأزدي: فتوح الشام ١١١، ١٣٤.
(٢) ابن أعثم ١/ ٢٢٥؛ الأزدي ٢٢٦ ـ ٧
(٣) الأنساب لابن الكلبي ٢/ ٣٦١.
(٤) الطبري ١/ ٢٠٦٥ ويذكر خليفة أنه «يقال إن الرسول (ص) كتب له كتاباً، ويقال إنه كتب للحارث بن عمرو» (٦٣)
(٥) ابن أعثم ١/ ١٢٤.
(٦) الطبري ١/ ٢٠٤٧؛ ابن عساكر ١/ ٥٣٦
(٧) فتوح البلدان ١٣٤.

ثم تخلّى جبلة عن الروم بعد اندحارهم في اليرموك، وانضم إلى المسلمين[1]، وقَدِمَ إلى المدينة مع خمسمائة من قومه، وذهب إلى الحج، ثم استاء من قرار عمر أن يقتصَّ منه لِنَطْمِهِ مسلماً، فعاد إلى الشام وتنصَّر، وانسحب مع هرقل إلى بلاد الروم[2]، ويروي البلاذري أنه انسحب معه ثلاثون ألفاً علماً بأن المنسحبين الملتحقين بهرقل كانوا من غسان وتنوخ وأياد، ولاحقهم المسلمون فقتلوا منهم مقتلة عظيمة[3].

(١) ابن أعثم ١/ ١٧٠، ٢٤٠، ٣٠٢

(٢) الأغاني ١٥/ ١٦٢ ويذكر رواية أخرى أنه كان مع ألف من قومه.

(٣) فتوح البلدان ١٦٢.



الفصل التاسع

توجه أهل مكة والرسول (ص) نحو الشمال

الصلات بين الشام والحجاز

كانت لبلاد الشام صلة وثيقة بالحجاز بحكم اتصالهما الجغرافي وطبيعة البلاد بينهما، فأراضيهما متموّجة تخترقها سلاسل جبال السراة التي تمتد من الشمال إلى الجنوب دون أن تكوّن حاجزاً بينهما. إلا أن الروم الذين كانوا يحكمون بلاد الشام لم يحاولوا الاستيلاء على بلاد الحجاز، بل حرصوا على إقامة علاقات ودية مع العشائر العربية في أطراف دولتهم والحفاظ على علاقات طيبة مع العشائر المقيمة في شمال الحجاز.

وكانت لمكة صلات قديمة ببلاد الشام، فقد نشأ قصيّ عند أخواله بني بلى في أطراف الشام[1]. وكان هاشم أول من مدّ التجارة المكية إلى الشام وأخذ الإيلاف، ولا بد أن عمله كان تعزيزاً لعلاقة كانت قائمة عملياً قبله. ولمّا خاصم عبد المطلب ثقيفاً لجأ معهم إلى كاهن بالشام يقال له عمرو بن مسلمة

(١) المنمق لمحمد بن حبيب ٣٥، ٢٦٣

المطري[1] وكانت لعبد المطلب تجارة مع الشام حيث ذهب إليها شريكه عمرو بن ربيعة[2].

وكان للرسول (ص) وأسرته نصيب كبير في هذه التجارة، فقد كان هاشم جد الرسول (ص) أول من أخذ الإيلاف، ودفن في غزة في آخر سفراته. وكان عبد الله، والد الرسول (ص) يسافر إلى الشام للتجارة. كما أن السفرتين الوحيدتين اللتين ذكرتهم كتب سيرة الرسول (ص) كانتا إلى بلاد الشام وصل فيهما إلى بصرى، أولاهما مع عمه أبي طالب عندما كان صغيراً ولقي فيها بحيرا الراهب الذي تنبأ له بالنبوة، والثانية عندما كان في سن الخامسة والعشرين فسافر في تجارة للسيدة خديجة التي تزوجها بعد سفرته وأنجبت له أولاداً، وكانت أول من آمن به وشجعه

وكانت علاقة الروم بمكة علاقة خاصة وودية، فلم يعرقلوا التجارة معها، فكانت رحلة الصيف لقوافل أهل مكة تسير إلى بلاد الشام، وكانت القافلة من الأنباط تأتي من بلاد الشام بالحنطة والدرمك والزيت والقطنيات إلى المدينة، كما كان بعض يهود المدينة يجلبون السلع من بلاد الشام، ولعلهم كانوا يصدّرون بعض منتوجات المنطقة، ولا سيما الذهب الذي يُسَكّ منه الدينار وهو العملة الأساسية في بلاد الروم وفي التجارة العالمية[3]

وللإسلام موقف طيب من المسيحية التي كان يعتنقها أهل الشام منذ بدء الدعوة الإسلامية في مكة. فقد نزلت كثير من الآيات في ذكر عيسى ومريم والإنجيل وأشادت بهم وأشارت إحدى الآيات إلى حسن موقف النصارى من الإسلام حيث قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ [المائدة/ ٨٢]. ولما انتصر الساسانيون على الروم واحتلوا بلاد الشام وفلسطين ومصر

---

(١) المنمق ٩٩.

(٢) المنمق ٣٥٩، ٣٢٩.

(٣) انظر تفصيل أوسع في كتاب كرون «تجارة مكة عند ظهور الإسلام». وانظر محمود إبراهيم «العاصمة التجارية والإسلام»

نزلت آية تظهر عطف المسلمين على الروم وتتنبأ لهم بالانتصار حيث قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝﴾، [الروم]، ونزلت آيات تؤيد نبوة عيسى وتذكر أنه جاء «من روح اللّٰه» و«كلمة اللّٰه ألقاها في مريم»، وكانت هجرة المسلمين الأولى إلى الحبشة التي تؤمن بالنصرانية.

ولمّا هاجر الرسول (ص) إلى المدينة أخذ يهاجم القوافل المكية الذاهبة إلى بلاد الشام، فتعرقلت تجارة أهل مكة وضعفت، غير أن الرسول (ص) كان في السنوات الأولى من الهجرة منشغلاً في مقارعة قريش فلم يركز اهتمامه على تنظيم علاقاته مع بلاد الشام، أو يحاول أن يحل محل أهل مكة في هذه التجارة، واكتفى في البداية بإنشاء علاقات ودية مع القبائل العربية القاطنة في شمال الحجاز وعلى أطراف بلاد الشام. وكشف حصار المشركين للمدينة، في موقعة الخندق، الخطر الذي يمكن أن تولّده العشائر القاطنة في شمال المدينة على قاعدة المسلمين فيها.

ولمّا أظهرت قريش عدم تمكنها من القضاء على الإسلام، وبخاصة بعد فشلها في غزوة الأحزاب، وضعف روحها القتالية، وضمن الرسول (ص) بمعاهدة صلح الحديبية عدم هجوم مشركي قريش على الإسلام وقاعدته على المدينة، تقدّم بجيش إلى الشمال واستطاع إخضاع المستعمرات اليهودية في خيبر وفدك ووادي القرى، وكان لانتصاره هذا أهمية كبيرة، لأن خيبر وفدك أول مستعمرتين لليهود يستولي عليهما الرسول (ص)، وهما منطقة خصبة غنية وفرت للمسلمين مورداً كبيراً، وسيطرة على مصدر غنيّ كان يموّن القبائل الأخرى بكثير من حاجاتهم الغذائية. ثم إن خيبر كانت منطقة حصينة فيها كثير من الأطم والحصون الدفاعية، وكانت معقلاً لليهود المناوئين للرسول (ص)، وكان لأهلها نفوذ على بقية اليهود وخصوصاً في شمال الحجاز[1]، وأدى استسلامها إلى توقف نشاط اليهود العدائي للرسول، فتخلص من دسائسهم.

---

(١) انظر مقالنا «أراضي المغانم وأحكام الرسول (ص) فيها» المنشور في مجلة «المبارزة».

وكان أهل خيبر قد تحالفوا مع غطفان وطي، مكوّنوا بهذا الحلف حاجزاً أمام تقدُّم الرسول إلى الشمال، فلما استسمت خيبر انهار هذا الحلف والحاجز الذي كوّنه وبذلك امتدت سيطرة الإسلام إلى شمال الحجاز وقرّبت المسلمين من حدود بلاد الشام والمناطق الواقعة في شمال الحجاز قرب حدود بلاد صحراوية جرداء قليلة المياه، وفيها عدد من الحرات أهمها حرة ليلى وحرة الرجلاء، وسكانها القليلون قبائل بدوية أبرزها فزارة وعذرة وبلى وجذام وكانت خاضعة لنفوذ دولة الغساسنة العربية. فلما زالت تلك الدولة أصبحت كل قبيلة تتّبع السياسة التي يقررها رؤساؤها دون تنسيق أو استمرارية، غير أنهم لم يخضعوا للبيزنطيين أو يدينوا لدولتهم بالولاء، فلما امتد سلطان الإسلام بعد فتح خيبر إلى تلك المناطق سارع عدد منهم إلى اعتناق الإسلام وإظهار ولائهم لدولته، غير أن بعض هذه القبائل ظل خارج دولة الإسلام

وقد اعتدى بعض من لم يسلم من بني عذرة على رُسُل كان النبيّ (ص) قد أوفدهم إلى بلاد الشام، فأرسل حملة بقيادة زيد بن حارثة لتأديب هذه القبائل والسيطرة عليها، ولعله استهدف أيضاً استطلاع القوات البيزنطية في تلك المناطق. واشتبكت هذه الحملة مع قوات عربية موالية للروم عند مؤتة، فقتل قائدها واثنان وَلِيا القيادة بعد مقتله، فضلاً عن عدد من المسلمين، فقام خالد بن الوليد وكان مشاركاً فيها بسحب القوات الإسلامية.

واكتفى الرسول (ص) بعد فتح مكة بإرسال حملات إلى أطراف بلاد الشام، دون جهات أخرى، وكانت أبرز حملاته إلى دومة الجندل ومؤتة وتبوك. فأما حملته على دومة الجندل فكانت في ذي القعدة من السنة الخامسة، وهي واحة فيها نخل وزروع، ولم تكن خاضعة للروم، وكانت تُعقد فيها في النصف الأول من ربيع الأول سوق مشهورة عند العرب يتبادل السيطرة عليها الغساسنة والعباديون ويعشرون تجارات الناس فيها، وكانت السيطرة فيها بعد الهجرة لأكيدر بن عبد الملك العبادي[1]. وبلغ الرسول (ص) أن أكيدر ظلم تجار

---

(١) المحبر ١١٤

المسلمين ولكنه لم ينشب معهم قتالا[١]. ثم أرسل في السنة السادسة سرية قوامها سبعمائة رجل بإمرة عبد الرحمن بن عوف. وتلاها بسرية بإمرة زيد بن حارثة إلى حسمي وراء وادي القرى ثأراً لقافلة اعتدى عليها رجال من جذام.

وفي السنة الثامنة للهجرة، أنفذ بعد عمرة القضاء سرية إلى ذات أطلاح وهي من بلاد الشام في ديار قضاعة[٢]. وتلتها في جمادى حملة قوامها ثلاثمائة رجل، ثم عززهم بمائتين من أهل الشرف من المهاجرين والأنصار فيهم أبو بكر وعمر، وكانت الحملة بإمرة عمرو بن العاص وسُمّيت ذات السلاسل[٣].

وفي جمادى من السنة الثامنة أنفذ الرسول (ص) حملة قوامها ثلاثة آلاف رجل أكثرهم من المهاجرين والأنصار، وأعلن الرسول (ص) عن الاستعدادات لها، وعيَّن لها قائدين هما زيد بن حارثة المقرب إليه، وجعفر بن أبي طالب، ابن عمه ليتولى القيادة إذا أصيب زيد وشيَّعهم إلى خارج المدينة، ووصلت الحملة إلى مؤتة قرب معان، وهي من أرض البلقاء من مشارف الشام جنوب شرق البحر الميت، فاهتم هرقل بأمر الحملة، وكان مقيماً في مآب، فجمع جموعاً من الروم والعرب المستعربة[٤] واشتبكت القوات الإسلامية مع قوة بلي يقودها مالك بن رافلة الغساني وفي طليعته شرحبيل بن عمرو الغساني، وكان القتال ضارياً قتل فيه زيد بن حارثة ثم جعفر بن أبي طالب، فتولى القيادة خالد بن الوليد وسحب الجيش الإسلامي.[٥] إن هذه المعركة نبهت الروم إلى قوة الإسلام، فزاد اهتمامهم بتوثيق صلاتهم بالقبائل التي في أطراف دولتهم ممن يقيمون في شمال الحجاز.

وغزوة مؤتة تظهر اهتمام الرسول (ص) بالتوسع نحو الشمال. والواقع أن

---

(١) ابن هشام ٣/١٢٥٢؛ مغازي الواقدي ٢/٥٦١؛ المحبر ١١٦.

(٢) مغازي الواقدي ٧٥٦

(٣) الطبري ١/١٦٠١.

(٤) الطبري ١/١٦١٠.

(٥) الواقدي ٧٦٠؛ ابن سعد ٢/١٤٨؛ الطبري ١/١٦١٠ ـ ١٤؛ تاريخ دمشق ١/٣٨٨

عدم نجاح الغزوة ومقتل قوادها، لم يؤدِ إلى تعديل الرسول (ص) سياسته، فقد جهز الرسول حملة أخرى إلى الشمال قادها بنفسه، وقد تم ذلك في أواخر السنة التاسعة في فصل الصيف الحار مما أثار تذمر بعض المسلمين من الحر وصعوبة الحصول على وسائل النقل والتجهيزات وقد سمّي هذا الجيش (جيش العسرة).

وبالرغم من كل ذلك فقد أصرّ الرسول على إنفاذ الحملة، وأعلن عن وجهتها خلافاً لعادته في التكتم في وجهة حملاته، ولعل إعلانه هذا لاعتقاده بخلو المدينة من جواسيس للروم بعد أن طهّرها من العناصر المريبة، أو ربما أراد الرسول بهذا الإعلان أن يظهر أن نتائج غزوة مؤتة لم تؤثر عليه.

تقدمت الحملة إلى الشمال متبعة الطريق التجاري القديم بين الحجاز وبلاد الشام حتى وصلت تبوك، وأقام الرسول في طريقه عدة مساجد، ثم عاد دون أن يشتبك بقتال حامٍ أو يقوم بعمل حاسم واستغرقت هذه الحملة أكثر من شهر.

وتابع الرسول اهتمامه بالجبهة الشمالية فجهّز حملة أخرى ولّى قيادتها أسامة بن زيد الذي قتل أبوه في غزوة مؤتة، وكان اختار الرسول (ص) أسامة رغم حداثة سنة إكراماً لأبيه. غير أن الرسول (ص) توفي قبل أن تغادر الحملة المدينة، فتأخر إرسالها. فلما تم انتخاب أبي بكر أنفذ تلك الحملة رغم اعتراض بعض الصحابة على تولّي أسامة قيادة الحملة، ورغم الأخطار التي كانت تهدّد آنذاك المدينة. وكان أبو بكر يعتبر إنفاذ تلك الحملة جزءاً من سياسته الأساسية في عدم تغيير أي قرار اتخذه الرسول. وقد تقدّم أسامة بحملته نحو الحدود الشمالية إلى آبل الزيت وقضى مدة شهرين في تلك الأطراف دون أن يقوم بعمل حاسم يستحق الذكر. والواقع أن أهمية هذه الحملة ترجع إلى تقرير الرسول إرسالها وإصرار أبي بكر على إنفاذها في تلك الظروف المتوترة وليس إلى الإنجازات الحربية التي قامت بها[1].

(١) انظر تفاصيل أوفى في كتابنا «الدولة في عهد الرسول (ص)».

موقف قريش والعرب من الفتوح في جبهة بلاد الشام

لما وَلِيَ أبو بكر الخلافة بعد وفاة الرسول (ص) تابع سياسة الرسول (ص) في التوسع نحو الشمال. وكان أهل مكة أول من استجاب لدعوة أبي بكر في النهوض والانضمام إلى الجيوش التي أمدها إلى بلاد الشام، ومما يدل على سعة استجابتهم أن عدد من ذكر استشهادهم من قريش في المعارك الأولى في فتوح بلاد الشام يفوق عدد من استشهد من العشائر الأخرى وتجدر الإشارة إلى أن أبا بكر جعل قيادة هذه الجيوش لرجال من مختلف عشائر مكة كان قد أسلم أكثرهم بعد الحديبية، وهم خالد بن سعيد بن العاص (وهو من المسلمين الأوائل)، ويزيد بن أبي سفيان (أمية) وعكرمة بن أبي جهل، وخالد بن الوليد (مخزوم)، وعمرو بن العاص (سهم)، وأبو عبيدة بن الجراح (فهر)، وشرحبيل بن حسنة (حليف جمح)[1].

وظلت لأهل قريش مكانة متقدمة في بلاد الشام بعد الفتح فإذا «كان اللقاء تقدم ربع قريش من أهل دمشق حتى يكونوا عند راية الأمير والجماعة، ثم ربع كندة عن يمينهم»[2] وكان أهل الشام يسمّون مَن استقر بالشام من أهل الحجاز (الجالية)[3].

وانضمت إلى الجيوش الإسلامية أعداد من قبائل كعب، وأسلم وغفار ومزينة، ومن عشائر قضاعة القاطنة في أطراف الحجاز الشمالية المتاخمة لحدود الروم مثل بهراء، وكلب، وسليح وتنوخ[4].

استجاب لدعوة أبي بكر جماعات من أهل اليمن ومنهم ذو الكلاع «نهض في قومه من ساعته، وعسكر معه جموع كثيرة من أهل اليمن، ثم جاءت

---

(١) ابن أعثم ١/١٧، ١١٩.
(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر ١/٢٦٢.
(٣) الأغاني ٩/٢٢٨؛ أنساب الأشراف ٥/٢٠٢.
(٤) ابن أعثم ١/١٠٤

نساؤها وأولادها»[١]. «وأقبلت خثعم بنسائهم وأولادهم، وهم دون الألف وفوق التسعمائة، عليهم ابن ذي السهم[٢]». كما جاء قيس بن هبيرة المرادي ومعه جمع كبير من مذحج[٣]، وحمزة بن مالك الهمداني في ألفي رجل ويذكر ابن أعثم ممن انتدب لأبي بكر همدان ومراد والأزد[٤]، وكان أبو بكر كتب إلى أهل اليمن مع أنس بن مالك في ربيع الآخر للسنة الثانية عشرة[٥] ولعله بعد أن تصدى الروم للعرب

موقف العرب في أطراف بلاد الشام من التحركات الإسلامية

يروي البلاذري أن أبا بكر عندما اختار القواد للجيوش التي أنفذها إلى بلاد الشام أمرهم أن يستنفروا من يمرون عليه من القبائل ممن لم يرتد[٦]. ومن المعلوم أن العشائر التي كانت ديارها في شمال الحجاز شملت طي، وأسد، وفزارة، وغطفان (عبس وذبيان) (عشائر قضاعة وما تشمله من سعد هذيم وعذرة وبلي. وكانت هذه العشائر كافة قد انضمت إلى دولة الإسلام في أواخر حياة الرسول (ص)، ولم يَرِدْ لرجالها ذكر في أخبار الفتوح الأولى في الشام، مما يدل على ضعف إسهامهم في حركات تلك الجبهة.

أما طي فكانت أبرز منازلها في جبل طي عند حائل، ولم يَرِدْ ذكر لعلاقاتها بحكام بلاد الشام أو بغسّان. ويلاحظ أن المصادر السريانية تطلق على أعراب البوادي اسم «طياية» الذي أطلقه الساسانيون والصينيون على العرب،[٧] وتدل هذه التسمية على أن طي كانت أكبر العشائر المتصلة بمناطق استيطان السريان ودولهم. وعند ظهور الإسلام، كانت لِطَي منازل في حاضر طي التي تقع قرب

(١) الأزدي ١٧؛ ابن عساكر ٢/ ٤٥٢.
(٢) الأزدي ٢٥.
(٣) الأزدي ٧.
(٤) ابن أعثم ١/ ١٠٤.
(٥) ابن عساكر ١/ ٢٤٥.
(٦) فتوح البلدان ١٠٦.
(٧) سيجال أديسا ٢٥.

قنّسرين، ويروي البلاذري عن هشام بن عمار الدمشقي عن عبادة بن أنس «كان حاضر طي قديماً نزلوه بعد حرب الفساد التي كانت بينهم حين نزلوا الجبلين من نزل منهم وتفرّق باقوهم في البلاد، فلما ورد أبو عبيدة عليهم أسلم بعضهم وصالح كثير منهم على الجزية ثم أسلموا بعد ذلك بيسير الزمن وشذ عن جماعتهم»[1]. ويقول اليعقوبي «وبإزاء مدينة قنّسرين مدينة يقال لها حاضر طي بها منازل طي»[2].

كانت جذام ولخم العشيرتين الرئيسيتين في الأطراف الجنوبية من بلاد الشام، وكانت ديار جذام في أطراف حسمى[3].

لم تذكر المصادر مقاومة هذه العشائر القوات الإسلامية عند تقدُّمها، والواقع أن أول معركة خاضها العرب في جنوب بلاد الشام كانت مع قوات من الروم، ولم تذكر المصادر أن العرب قاتلوا فيها مع الروم، وإنما يذكر البلاذري عن أبي حفصة الدمشقي أن العرب «لم يقاتلوا قبل ذلك من الحجاز، ولم يمرّوا بشيء من الأرض فيما بين الحجاز وموضع هذه الواقعة إلا غلبوا عليه بغير حرب وصار في أيديهم»[4].

عندما تقدَّم العرب إلى أطراف بلاد الشام لم يلقوا مقاومة من أهلها فتوغل عمرو بن العاص في فلسطين حتى وصل أطراف غزة كما أن يزيد بن أبي سفيان غلب على جميع أرض البلقاء دون مقاومة تذكر[5].

يذكر الأزدي في كلامه عن موقعة فحل «وجاءت لخم وجذام وعاملة والقين وقبائل من قضاعة فدخلوا مع المسلمين فكثر عددهم وصاروا معهم في

(1) فتوح البلدان ١٤٤؛ معجم البلدان لياقوت ٢/ ١١٨٥؛ بغية الطلب لابن العديم ١/ ٦٧٩.
(2) البلدان ٣٢٤؛ بغية الطلب ١/ ١٧٩.
(3) معجم ما استعجم، البكري ٢٣٥؛ معجم البلدان ١/ ٤٠٧؛ موزيل شمال الحجاز ١٣٤.
(4) فتوح البلدان ١٠٨.
(5) الأزدي: فتوح الشام ٢٣٩؛ ابن أعثم ٢/ ١٠٠

عسكرهم وأخذ أهل البلد من النصارى يراسلون المسلمين»[1]. ويقول أيضاً إنه بعد تفجُّر المياه في فحل انضم إليهم أهل القرى والرساتيق[2] ويذكر أن أبا عبيدة كتب إلى عمر بن الخطاب على أثر الموقعة يخبره أنه سارع إليهم أهل البلد ومن كان على دينهم من العرب[3]، وأن الروم انسحبوا إلى الحصون وأقام المسلمون على الحصون وقد غلبوا على سواد الأردن وعلى ما فيه[4].

وفي اليرموك حارب العرب المتنصّرة مع المسلمين، وكانت لخم وجذام وغسان وقضاعة وعاملة في الميسرة[5].

أما العشائر المقيمة في أقصى الأطراف الشمالية للحجاز فهي عذرة وسعد هذيم وبلي وعاملة وكلها أسلمت متأخرة، ولم تشارك في حركات الردة والانشقاق بعد وفاة الرسول (ص) فحفظت بولائها للإسلام ودولته، وكان على صدقاتها الوليد بن عقبة وعمرو بن العاص الذي وَلِيَ قيادة أحد الجيوش الثلاثة التي أنفذها أبو بكر إلى بلاد الشام، وَيُروى أنه كان معه عندما خرج من المدينة ثلاثة آلاف، ثم صار في سبعة آلاف، أي إنه انضم إليه بعد خروجه من المدينة أربعة آلاف. ولا بد أن كثيراً من هؤلاء كانوا من العشائر الثلاث المقيمة في أطراف الحجاز الشمالية، غير أنه لا توجد إشارة إلى دور بارز لهم ولرجالهم في أخبار فتوح بلاد الشام.

---

(١) الأزدي ٩٧
(٢) الأزدي ٩٨.
(٣) الأزدي ١١٠؛ ابن أعثم ٢/ ١٨٥.
(٤) الأزدي ١٢١.
(٥) الأزدي ٢٢٦ ـ ٧؛ ابن أعثم ١/ ٢٢٥

الفصل العاشر

المصادر وتتابع الحوادث

المصادر

إن المعلومات التي وصلتنا عن فتوح الشام جاءت من روايات عربية لرواة عاشوا في أواخر القرن الأول أو في القرن الثاني للهجرة، ودوّنها مؤلفون من أهل القرن الثالث الهجري فيما بعد.

أما المصادر السريانية التي ذكرت أخبار فتوح الشام فهي متأخرة نسبياً، ومعلوماتها مقتضبة تطابق ما أوردته الكتب العربية، مما يدل على اقتباسها منها، وأبرز هذه المصادر هي كتاب ثيوفانس (٢٠٤هـ ـ ٨١٩م) ومعلوماته واسعة، ولكنها لا تخرج عما ذكره المؤلفون العرب. وذكر كل من الياس النصيبي ومؤلف إسباني مجهول، وميخائيل السوري معلومات مقتضبة لا تضيف شيئاً إلى ما في الكتب الأخرى.

أما العرب فإن الأولين منهم لم يؤلفوا كتباً، وإنما رووا أخباراً نقلها عنهم عدد ممن تلاهم. وأبرز هؤلاء الرواة: محمد بن مسلم المشهور باسم ابن شهاب الزهري (ت ١٢٤) ومحمد بن إسحاق المطلبي (ت ١٥٠)، ومحمد بن عمر الواقدي (ت ٢٠٧)، وسيف بن عمر التميمي (ت ١٧٠ أو ١٩٠)، وأبو

مخنف لوط بن يحيى (ت ١٥٧)، وعلي بن محمد المدائني (ت ٢٢٥)[1]، والوليد بن مسلم؛ والثلاثة الأولون من أهل الحجاز، وللأول صلة وثيقة ببلاط الأمويين في الشام. أما الاثنان الآخران فهم من أهل العراق، والسابع من أهل الشام.

أما الكتب التي وصلتنا وفيها معلومات عن فتوح الشام فأقدمها «فتوح الشام» لمحمد بن عبد الله الأزدي البصري (ت ٢٣١) وكتاب «التاريخ» لخليفة بن خياط (ت ٢٤٠)، و«فتوح البلدان» للبلاذري (ت ٢٧٩)، وتاريخ أبي زرعة الدمشقي (ت ٢٨٠)، وتاريخ اليعقوبي (ت ٢٨٤)، و«الأخبار الطوال» لأبي حنيفة الدينوري (ت ٢٨٢)، وتاريخ الرسل والملوك لمحمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠)، وتاريخ ابن أعثم (ت ٣١٤)، وفيما عدا اليعقوبي والدينوري وابن أعثم فإن هذه الكتب ذكرت معظم الرواة الذين اقتُبِست منهم المعلومات. فأما خليفة بن خياط فقد أكثر من الإشارة إلى ما رواه عن ابن إسحاق، وأما البلاذري فقد ذكر ممن روى عنهم في معظم ما رواه وقد أكثر من الرواية عن الواقدي والمدائني كما نقل عن رواة من أهل الشام ذكر أسماء بعضهم، واكتفى بالإشارة عن بعضهم الآخر بأنهم من أهل البلاد التي روى أخبار فتوحها.

أما الطبري فقد عُنِي بذكر رواتهم ومن أخذوا منهم، ونقل روايات مقتضبة عن الزهري وابن إسحاق والواقدي، وأفاض في النقل عن سيف بن عمر والمدائني.

كانت هذه الكتب المعين الأكبر لكتب تالية بحثت فتوح بلاد الشام ومن أبرزها تاريخ دمشق لابن عساكر (ت ٥٧٠) و«الكامل في التاريخ» لعز الدين بن الأثير، و«البداية والنهاية» لابن كثير، و«العبر» لعبد الرحمن بن خلدون، و«بغية

(١) انظر منهم: فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي، م ١، ج ٢، عبد العزيز الدوري، «نشأة علم التاريخ عند العرب».

الطلب» لابن العديم. ولكتاب ابن عساكر مكانة متميزة لاستيعابه مادة المصادر الأولى المطبوعة والمفقودة، وتقسيمها تبعاً للحوادث أو المسهمين فيها. فمادته غنية مستوعبة وتعليقاته لا تثمن ولا غنى عنها.

وتجدر الإشارة إلى ما ذكرته كتب النسب، لا سيما كتابَي «الأنساب» لهشام ابن محمد الكلبي، و«نسب قريش» لمصعب الزبيري، ففي كل منهما معلومات عن رجال شاركوا في الفتوح وعن علاقاتهم النسبية والمعارك التي شاركوا فيها واستشهدوا. ولكن ثمة تباين في تواريخ المعارك وتسلسلها الزمني وفي أسماء القادة، وفي عدد من التفاصيل الأخرى

وقد عُنِيَ عدد من الباحثين المحدثين بدراسة فتح العرب للشام، وأبرز هؤلاء دي غويه في دراسته «مذكرة عن فتح بلاد الشام» وميدنكوف عن «معركة أجنادين» التي اعتمدها العميد طه الهاشمي في دراسته لتلك المعركة ونشرها في مجلة المجمع العلمي العراقي، وكايتاني في كتابه الواسع «حوليات الإسلام» الذي دوّن فيه أحداث «الفتوح الإسلامية» مرتّبة على السنين؛ كما بحث في كتابه «دراسات في تاريخ الإسلام» دوافع الفتوح، ولكتاب دونر «الفتوح الإسلامية» مكانة متميزة لشموله وغزارة مادته، واهتمامه بتوضيح بعض الجوانب التي لم يُعنَ بها من قبله.

وبحث عدد من العرب في الفتوح، نذكر منهم جورج مرعي حداد في رسالته فتح العرب لبلاد الشام وقد اعتمد على دي غويه؛ كما بحث هذه الفتوح أحمد كمال عادل في كتاب خاص هو حلقة من سلسلة كتبه القيّمة في فتوح العراق وبلاد الشام.

وخصّ المجلد الثاني من وقائع المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام بأحوال هذه البلاد عند الفتح الإسلامي، وعرض المشاركون في الندوة أبحاثاً قيّمة عن جوانب متعددة لأحوال البلاد خلال هذا الفتح

ونُشِرَتْ عدة أبحاث عن الحروب الإسلامية البيزنطية، ومن أبرزها كتاب «النزاع بين العرب والروم» لعبد الهادي شعيرة.

أما فتح مصر فلا يزال أوسع كتاب حديث معتمد هو كتاب ألفرد بتلر «فتح العرب مصر» الذي كان معتمد كتاب «عمرو بن العاص» لحسن إبراهيم حسن. أما الكتب القديمة فأقدمها وأوسعها كتاب «فتوح مصر وإفريقية» لابن عبد الحكم، و«الولاة والقضاة» للكندي، و«الخطط المقريزية».

أما بلاد شمال إفريقية والمغرب، فمن أقيم الكتب الحديثة عنها «فتح العرب للمغرب» لحسين مؤنس، و«تاريخ المغرب» لسعد زغلول اللذين اعتمدا على مؤلفات أهل المغرب القدماء، وعلى عدد من الدراسات الحديثة، وعليهما كان اعتمادنا.

أما الأندلس فمن أقيم الكتب الحديثة عنها كتابا «إسبانيا الإسلامية» لبروفنسال، و«فتح العرب للأندلس» لحسين مؤنس، وعليهما كان اعتمادنا.

السمات الخاصة للحركات العسكرية والمعارك في بلاد الشام

قاتل العرب في فتوح العراق وبلاد الشام قوات عسكرية لها تاريخ طويل في الحروب لكثرة ما خاضت من معارك كبيرة أكسبتها خبرات واسعة، واستقرت فيها تقاليد، كانت هذه القوات تابعة للدولتين تضم كلٌ منهما بلاداً واسعة تمدها بالرجال والأموال، وكان قتال العرب المسلمين لكلٍ من هاتين القوتين جديداً عليهم ولم تكن لهم قبله خبرات واسعة فيها؛ والمعارك التي خاضها العرب ضد الفرس قبل الإسلام كانت معارك محدودة في زمانها ومكانها ونطاقها، ولم تكن من السعة والتكرر، مما يكفي إكساب العرب خبرة في معالجتها، وهذا ينطبق بمقياس أضيق على علاقاتهم بالروم.

غير أن العرب لم يكونوا جاهلين كلياً بالقوات العسكرية لكلٍ من الدولتين الفارسية والرومية، حيث إن عدداً من العرب شارك في القتال مع جيوش كلٍ منهما، كما أن الصلات السلمية بين العرب وهاتين الدولتين يسّرت لهم فرصة الاطلاع على أحوالهما الجغرافية والإدارية والمادية، وعلى التعرف إلى نُظُمِهما العسكرية وقواتهما، وربما إلى كثير من تقاليدهما.

ويختلف مجرى تسلسل معارك الفتح في العراق عنه في بلاد الشام حيث إن الفتوح في العراق مهدت لها حركات قطبة بن قتادة والمثنى بن حارثة التي وإن لم تصطدم بقوات عسكرية فارسية كبيرة إلا أنها قدَّمت حوافز إضافية، ونبَّهت الفرس إلى خطر تقدُّم العرب وإن لم يتحدوا تجاهه في المراحل الأولى أعمالاً حاسمة.

واتخذت سلسلة المعارك التي خاضها العرب المسلمون في جبهة العراق خطوطاً مستقيمة جرت عليها هذه المعارك، فكانت حركات خالد بن الوليد سلسلة من المعارك جرت من الجنوب إلى الشمال، مبتدئة بكاظمة، فالأبلة، فالولجة، فألّيس، فالحيرة، فالأنبار، فعين التمر، فالمثنى. أما حركات سعد بن أبي وقاص فقد سلكت خطاً مستقيماً من الغرب إلى الشرق مبتدئة بالقادسية والحيرة التي كانت منطقة المد الأساسية، ثم سارت إلى المدائن فجلولاء فنهاوند، وتفرَّع منها فرع إلى كسكر ودرعان ربيسان نحو الشمال سلك أحدهما وادي دجلة إلى تكريت بالموصل، وسلك الثاني شهرزور والجبال فأذربيجان

ومثل هذه الخطوط المستقيمة إتّبعت بعد نهاوند حيث سلك خط إلى الري فجرجان، والثاني إلى أصفهان وسلكت فتوح البصرة، فيما عدا الأهواز، مثل هذا الخط إلى إقليم فارس فخراسان التي خاض العرب للاستيلاء عليها معارك متعددة ومتناثرة للاستيلاء على من قاوم العرب من مدنها. ولم يعد للفرس بعد اندحارهم في نهاوند قوة ذات سلطة عليا توجِّه مقاومة العرب.

وعمدت الخلافة إلى أن يقاتل الجيش في جبهة العراق مجموعة موحدة بإمرة قائد واحد منذ أن أرسل خالد بن الوليد، فابن عبيد، فجرير البجيلي، فسعد بن أبي وقاص، ثم عبد الله بن عامر ومن تلاه في ولاية خراسان. وكانت مهمة الجيش الإسلامي ملاحقة جيش الفرس ومقاتلته وفيما عدا ألّيس والأنبار وبهرسير، فإنه لم يقاتل حصوناً، ولم تفرِّقه وتشعِّب تكتله مقاومات مدن، فالفرس لم يستغلوا المدن في مقاومة تقدُّم الجيش العربي.

أما جبهة بلاد الشام فكان الوضع فيه مختلفاً، حيث أرسل العرب منذ

البداية عدة قواد يقاتل كلٌ منهم في جبهة خاصة مع الجند الذين بإمرته، وبذلك كانت قواتهم في البداية متفرقة، وحتى عندما اقتضت الظروف تجميع قواتهم، فإن القيادة ظلت متفرقة وغير موحدة إلى زمن خلافة عمر بن الخطاب، أي بعد أكثر من سنتين خاضوا خلالها عدة معارك كبيرة، وقد اختلف الرواة القدماء في تحديد أعمال القادة المسلمين، رغم اتفاقهم على أسمائهم، إلى أن وَلِيَ عمر بن الخطاب الخلافة فوحّد القيادة.

ولم تكن خطوط تقدُّم العرب في جبهة بلاد الشام مستقيمة أو مطّردة، ولعل من أبرز أسباب ذلك أن المدن في بلاد الشام كانت متعددة. ولكلٍّ منها كيان متميز، وأكثرها كان محصناً بأسوار منيعة، وكانت تخترق البلاد سلاسل جبلية تمتد من الشمال إلى الجنوب فتيسر للعرب التقدم في السهول التي بينها، ولكنها تعيق تقدُّمهم من الشرق إلى الغرب، فضلاً عن السواحل الطويلة للبحر المتوسط ووجود الأسطول البيزنطي مما يجعل الحركات تحدث في أماكن متعددة، ويزيد في إرباك القوات العربية الإسلامية ويحملها على عدم التمسك بالسير في خطوط مستقيمة، وكان هذا من أسباب اختلاف الرواة في وصف التسلسل الزمني للمعارك وتقدير أهمية كلٍّ منها.

ثم إن الامبراطور هرقل، وهو القائد الأعلى للروم، كان يتميز بالمفاجآت والاهتمام بالالتفاف ومفاجأة خصومه بضربهم من الوراء، وهذا ما فعله عندما تقدَّم من تونس إلى اليونان فالقسطنطينية، في حملته التي قادها بنفسه وهدد فيها عاصمة الفرس فأجبرهم على الانسحاب من أطراف القسطنطينية ومن مصر عندما توجهوا إليها.

غير أن القوات الإسلامية في جبهة العراق تابعت تقدُّمها إلى أواسط آسيا بعد تضعضع الحكم الساساني بسقوط العاصمة طيسفون القريبة من حدوده الغربية. أما البيزنطيون فكانت عاصمتهم القسطنطينية في الشمال بعيدة عن جبهة القتال، يفصلها عن بلاد الشام سلاسل جبال طوروس الوعرة، ووراءها هضبة الأناضول الواسعة والمعقدة أحوالها الجغرافية، إضافة إلى أن الروم كانوا

يهيمنون على شرق أوروبا ويستفيدون من رجالها في متابعة قتال العرب؛ ولهم أسطول يسيطر على البحر المتوسط؛ مما أوقف العرب في تقدُّمهم إلا في شمال إفريقية حيث سارت حركاتهم بخطوط مستقيمة عموماً حتى أوصلتهم جبال البيرانيس ولم يكن للأسطول البيزنطي دور في عرقلة تقدُّمهم؛ واقتصر دوره على تهديد غير حاسم لموانىء بلاد الشام والجزر القريبة منه.



الفصل الحادي عشر

المقاتلة العرب في جبهة بلاد الشام

كان أول عمل قام به أبو بكر بعد تولّيه الخلافة هو إنفاذ حملة أسامة بن زيد في أحوال كانت فيه الدولة الإسلامية تواجه أزمات خطيرة، وقد قام بذلك بالرغم من حاجة الدولة إلى مقاتلة تكون قريبة من الخليفة وتحت تصرفه، ومعارضة بعض الأنصار لاختيار أسامة[1]، وهذا الإنفاذ يظهر عزم أبي بكر على متابعة سياسة الرسول (ص) دون تبديلها مهما كانت الأحوال. وكان جيش أسامة مكوّناً من العشائر الحجازية التي بقيت متمسكة بالإسلام ودولته، ومن أهل المدينة، بعد أن أبقى عدداً منهم ليكونوا كالمسالح للمدينة[2]، ولم يذكر عدد هذا الجيش.

توجّه أسامة مع قواته إلى بلاد قضاعة في الشمال حيث قضى أربعين يوماً أخضع خلالها بعض من انشق على الدولة[3]، ووصل إلى آبل[4] بعد أن أمن سيطرة الدولة على قضاعة.

ثم ولّى أبو بكر عمرو بن العاص والوليد بن عقبة صدقات قضاعة وكتب إليهما «أن استحلفا على أعمالكما وأندبا من يليكما فقَدِمَ اليهما بشر كثير،

---

(١) الطبري ١/ ١٨٤٩.
(٢) الطبري ١/ ١٨٤٨.
(٣) الطبري ١/ ١٨٥١، ١٨٧١.
(٤) الطبري ١/ ١٨٧٢

وانتظروا أمر أبي بكر»[1]، ومن الواضح أن الذين انتدبوا هم رجال من عشائر قضاعة الموالية للإسلام، وهي سعد هذيم وعذرة ومن لفها من جذام وحدس[2].

وكان أبو بكر يفكر في توجيه القوت الإسلامية إلى بلاد الروم، ويروي أبو زرعة أنه قال «فوالله لقرية من قرى الشام يفتحها الله على المسلمين أحب إلي من رستاق عظيم من رساتيق العدو»[3]. وينقل ابن عساكر أن أبا بكر «حدث نفسه بأن يغزو الروم فلم يطلع عليه أحداً، وأن شرحبيل بن حسنة أدرك بحدسه ما يجول ببال أبي بكر ففاتحه وشجعه وقال إن فيها الزرع والقرى والحصون شنوا الغارة على أعداء الله»[4]. ويُروى أيضاً أن أبا بكر عندما أعلن فكرته أيده جماعة من المهاجرين والأنصار، وأن عمر بن الخطاب قال له «تبعث الخيل فتغير في قواصي أرضهم ثم ترجع إليك»[5].

واهتمام أبي بكر في التوجه نحو الشمال هو متابعة لأعمال الرسول (ص) في سنواته الأخيرة، وإذا لم يكنْ أبو بكر قد أسهم في وضع خطط الرسول (ص) فهو قد تفهَّم دوافعها ومراميها، غير أن توزيع القوات التي أرسلها على عدة قواد لتتوجه إلى عدة جهات يدل على أن غرضها في أول الأمر هو القيام بغارات في عدة جهات تكشف قوات العدو ودفاعاتهم فتضعفهم وتيسِّر القضاء عليهم وخصوصاً أن آثار حركات الانشقاق والردة لم يتمَّ اجتثاثها بعد وعبَّر عن ذلك سيف بن عمر بقوله إن أبا بكر عندما بعث أبا عبيدة ويزيداً أمر كلاً منهما بالغارة وألا يتوغلوا حتى لا يكون وراءهم أحد من

(1) الطبري ١/ ٢٠٨٣؛ تاريخ دمشق لابن عساكر ١/ ٤٥٢
(2) الطبري ١/ ٢٠٨٢؛ ابن عساكر ١/ ٤٥٢.
(3) تاريخ أبي زرعة ١٧٢.
(4) ابن عساكر ١/ ٤٤١.
(5) ابن عساكر ١/ ٤٤٥.

عدوّهم[1]، وكان يدرك أن الروم ستشغلهم «فأحب أن يصعد المصوب ويصوب المصعد لئلا يتواكلوا»[2].

ويذكر الطبري أن أبا بكر كتب إلى الوليد بن عقبة، وكان يلي صدقات قضاعة بالأردن وأيّده،[3] غير أنه لم يذكر للوليد وقواته حركات أو دوراً بارزاً في الفتوح، وإنما لحق بخالد بن سعيد.

كانت أولى القوات العربية التي توجهت إلى الشام هي التي سارت مع القواد العرب الأولين الذين أنفذهم أبو بكر، وهم عمرو بن العاص والوليد بن عقبة اللذان ولّاهما على صدقات العشائر التي ديارها أطراف بلاد الشام، ثم كتب إلى عمرو بن العاص «إني قد استعملتك على من مررت به من بلي وعذرة وسائر قضاعة ومن سقط هناك من العرب فأندبهم على البر والجهاد، فمن تبعك منهم فأمّله وزوّده، ورافق بينهم واجعل كل قبيلة على حدتها ومنزلتها»[4]؛ ويذكر ابن عساكر أن عَمراً كان في طريقه من المدينة إلى الشام يدعو الأعراب الذين يمرّ بهم إلى الانضمام إليه فانضم إليه عدد كبير فبلغ الشام في جيش من العين[5]

ويذكر أيضاً أن عمرو بن العاص عندما تحرك إلى بلاد الشام قدم «أمامه مقدمة عليهم سعيد بن الحارث السهمي، ودفع لواءه إلى الحجاج بن الحارث السهمي، وكان جند عمرو الذين خرجوا معه من المدينة ثلاثة آلاف، فيهم ناس كثير من المهاجرين والأنصار، وخرج أبو بكر الصديق يمشي إلى جنب راحلة عمرو بن العاص»[6] وقد تم جمع هذه القوات بالندب[7]

---

(١) الطبري ١/٢١١١.
(٢) الطبري ٢/١٠٨٦.
(٣) الطبري ١/٢٠٨٤
(٤) الطبري ١/٢١٠٨؛ ابن عساكر ١/٤٥٢.
(٥) الأزدي ٢٥١؛ ويذكر ابن عساكر ١,٤٤٦ أن الجيش بلغ ثلاثة آلاف
(٦) ابن سعد ٣ ـ ٢/١٢٠٠؛ تاريخ دمشق لابن عساكر ١/٤٤٦.
(٧) الطبري ١/٢٠٨٣؛ تاريخ دمشق لابن عساكر ١/٤٤٦، ٤٥٢

يتبين من هذه النصوص أن عماد القوة التي سارت مع عمرو بن العاص هي عشائر بلي وعذرة ومن يقربها، وانضم إليها «ناس كثير من المهاجرين والأنصار» من أهل المدينة، ورتبوا تبعاً لانتمائهم القبلي «وكل قبيلة على حدتها ومنزلتها» وبلغ عددهم ثلاثة آلاف، وكان للسهميين مكانة خاصة في القيادة، ولعل تركيب جيش الوليد بن عقبة الذي لم ترد عنه تفاصيل كان يشبه جيش عمرو بن العاص.

وكتب أبو بكر إلى عمرو بن العاص أيضاً «إني قد استعملتك على من مررت به من بلي وعذرة وسائر قضاعة وقد سقط هناك من العرب فادعه على البر والجهاد واجعل كل قبيلة على حدتها ومنزلتها». وكتب إليه «قد أحببت أن أفرغك لما هو خير لك في حياتك ومعادك منه»

ويقول أيضاً إن عمرو بن العاص خرج من المدينة، وخرج إليه سهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، وابن أخيه عكرمة بن أبي جهل وهؤلاء الثلاثة في ثلاثة آلاف فارس من قومهم ومواليهم[(1)] وخرج إليه أبو الأعور السلمي، وحصن بن يزيد ابن عمه في ألف وسبعمائة فارس، وخرج إليه الضمادة بن قيس الفهري في ثلاثمائة فارس، وعمير بن صداء المرادي في مائتي فارس، فصار عمرو بن العاص في قريب من ثلاثمائة فارس[(2)]

ويذكر الطبري أن عمرو بن العاص بعد أن جمع قوات من قضاعة أمدّه أبو بكر بمن انتدب له[(3)].

ذكر الطبري أنه بعد استقرار سلطة الدولة في جزيرة العرب «كتب أبو بكر إلى عمال الردة فإن أحب من أدخلتم في أموركم إلى من لم يرتد، ومن كان

---

(1) ابن أعثم ١/١٢٣.
(2) فتوح البلدان ١٠٧.
(3) تاريخ خليفة ٨٥، الطبري ١/٢٠٨٩ (عن ابن إسحق).

ممن لم يرتد فاجمعوا على ذلك، فتخذوا منها صنائع، وائذنوا لمن شاء في الانصراف، ولا تستعينوا بمرتد في جهاد عدو»[1].

كانت دعوة أبي بكر دعوة عامة، غير أن لها وقعاً خاصاً في الحجاز واليمن، لأن العشائر المرتدة فيهما كدت قبلة؛ وكان الأذواء والمتنفذون الذين يسيطرون على عالية مناطق اليمن قد اتصل رجال منهم بالرسول (ص) ولم يشاركوا في حركات الردة والانشقاق، ولا بد أنهم كانوا أكثر استعداداً للاستجابة إلى دعوة أبي بكر والتعاون معه. وكانت هذه الدعوة تهيّء لهم مجالاً لاستغلال طاقاتهم وإمكانياتهم العسكرية التي كانت تستنفد محلياً دون نتائج حاسمة، في حين أن دعوة أبي بكر تيسّر لهم مجال استغلالها تحت ظل دولة واسعة فتكون ضمن حركة شاملة تتوجّه إلى خارج الجزيرة، ولا بد أن بعضهم كانت له خبرات في التعامل مع القوات الأجنبية من خلال حروبهم مع الأحباش والفرس، وكانت طموحاتهم أوسع مع بلاد الشام حيث كانت لهم صلات تجارية قديمة.

ويذكر الأهدل أن أبا بكر كتب إلى أهل اليمن في جهاد الروم يذكر لهم الجهاد ويقول «وقد استنفرنا من قِبَلنا من المسلمين إلى جهاد الروم، وقد سارعوا إلى ذلك وعسكروا، وخرجوا وحسنت في ذلك نيتهم، وعظمت في الخير حسبتهم، فسارعوا عباد الله إلى فريضة ربكم وإلى إحدى الحسنيين: إما الشهادة وإما الفتح والغنيمة»[2].

ويذكر البلاذري أن أبا بكر كتب إلى أهل مكة والطائف واليمن وجميع العرب بنجد والحجاز يستنفرهم للجهاد ويرغبهم فيه وفي غنائم الروم فسارع الناس إليه من بين محتسب وطامع، وأتوا المدينة من كل أوب[3].

ويذكر الطبري أنه «قدِمَ على أبي بكر أوائل مستنفري اليمن ومن بين مكة واليمن، وفيهم ذو الكلاع، وقدِم عليه عكرمة قافلاً وغازياً فيمن كان معه من

(١) الطبري ١/ ٢٠١٧.
(٢) الوثائق السياسية ١٣٠٢ نقلاً عن أبي حسن في تقريب صحيح ابن حبان.
(٣) فتوح البلدان ١٠٦.

تهامة وعُمان والبحرين والسرو، فكتب لهم أبو بكر إلى أمراء الصدقات أن يبدلوا من استبدل، فكلهم استبدل فسُمّي جيش البدال[1].

يدل سياق كلام سيف أن جيش البدّال كان من العشائر التي شارك رجالها في قتال المرتدة مع عكرمة، وأن رجاله لم يشاركوا في القتال الثاني، وإنما أبدلوا بمن لم يشارك فيها من عشائرهم.

أما عمرو بن العاص فسار معه ثلاثة آلاف، ثم تابع أبو بكر إمداده وغيره من القواد حتى صار معه سبعة آلاف وخمسمائة[2].

والجدير بالذكر أن البلاذري يقول «كان كل أمير في بدء الأمر على ثلاثة آلاف رجل، فلم يزل أبو بكر يتبعهم الإمداد حتى صار مع كل أمير سبعة آلاف وخمس مائة، ثم تتام جمعهم بعد ذلك أربعة وعشرين ألفاً»[3].

ويقول ابن سعد إن أول الأمراء الذين خرجوا إلى الشام خرجوا من سبعة آلاف وهم جمهور من انتدب لهم ومن جنده سهيل بن عمرو وأتباعه من أهل مكة وكان من جيشه أبو إمامة الباهلي، وكان أبو بكر يخير الناس للالتحاق بمن يحبون، ووجّه يزيد إلى البلقاء واجتمع إلى أبي بكر أناس فأمر عليهم معاوية وأمره باللحاق بيزيد[4].

ويروي سيف بن عمر أنه قَدِمَ على أبي بكر إثر هزيمة خالد بن سعيد في زيزاء أوائل مستنفره من بين مكة واليمن وفيهم ذو الكلاع، وقَدِمَ عليه عكرمة

---

(1) ابن عساكر ١/٤٥١، وقد يكون للبدال علاقة بالأبدال الذين يذكر ابن منظور أنهم قوم من الصالحين بهم يقيم الله الأرض أربعون في الشام وثلاثون في سائر البلاد، ولا يموت منهم أحد إلا قام مكانه آخر ولذلك سموا الأبدال ابن شميل عن علي الأبدال بالشام والنجباء بمصر والعصائب في العراق والأبدال حيري ابن السكيت، يسمى المبرزون في الصلاح أبدالاً لأنهم أبدلوا من السلف الصالح (لسان العرب ١٣/ ٥٠)، وانظر ابن حنبل ١/ ١١٢، ٥/ ٣٢٢، ٦/ ٢١٦

(2) الطبري ١/ ٢٠٨٢، ٢٠٨٣، ٢٠٨٤.

(3) فتوح البلدان ١٠٧، ويذكر ابن أعثم أنه صار مع عمرو خمسة آلاف ١٢٤

(4) الطبري ١/ ٢٠٨٤، ٢٠٨٥.

قافلاً وقانياً فيمن كان معه من تهامة وعُمان والبحرين والسرو. وعند ذلك اهتاج أبو بكر للشام وعناه أمره[1].

ويروي الوليد بن مسلم أنه بعد القضاء على خطر حركات الردة جاءت أبا بكر وفود العرب مجتمعة على الإيمان بالله والإقرار بتوحيده والعمل بفرائضه وجهاده فدعاهم إلى جهاد قيصر وكسرى فأجابه إلى ذلك جماعة من المهاجرين والأنصار ومهاجرة الفتح وأمداد أهل العالية واليمن، فاجتمع له منهم أربعة وعشرون ألفاً، وولّىَ عليهم الأمراء، فمضوا لما وجّههم إليه[2].

وكان أبو بكر كلما قَدِمَ عليه وفد من العرب وجّههم إلى بلاد الشام[3].

ويقول ابن أعثم أنه «انتدب إلى أبي بكر خلق كثير من همدان وأسلم وغفار ومزينة ومراد والأزد وجميع القبائل»[4] «وجعل الناس يجتمعون إلى هاشم بن عتبة بن أبي وقاص حتى صار له قريب من ثلاثة آلاف، وكان منهم قيس بن جبير»[5].

ويقول أيضاً إن أبا بكر أمد سعيد بن خذيم في سبعمائة ومعه بلال، ثم سار سعيد بن عامر في ألفي رجل ولحق بأبي عبيدة بن الجراح[6].

يقول البلاذري «كان كل أمير في بدء الأمر على ثلاثة آلاف رجل[7]، حتى تتام جمعهم بعد ذلك أربعة وعشرين ألفاً»[8].

ويذكر ابن أعثم أن عمر أمدَّ المقاتلة من الشام بثلاثة آلاف فارس عليهم سويد بن الصامت[9]، وأن سعيد بن رفاعة الحِمْيَري قَدِمَ المدينة مع

---

(١) ابن عساكر ١/٤٥١.
(٢) ابن عساكر ١/٤٥٠، فتوح البلدان ١٠٧.
(٣) ابن أعثم ١/١١٩.
(٤) ابن أعثم ١٠٤.
(٥) ابن أعثم ١/١١٤، ١١٦.
(٦) ابن أعثم ١١٩.
(٧) ابن أعثم ١٢٣.
(٨) ابن أعثم ١/١٢٣.
(٩) ابن أعثم ١/١٢٢.

قومه من حِمْيَر فسيَّره عمر إلى قتال الروم[1]، والراجح أن ذلك كان قبل اليرموك.

القادة

تطلبت الأعداد الكبيرة التي تقدمت للمشاركة في الحركات العسكرية والفتوح أن تنظم لها قيادات. وذكرت المصادر معلومات وافية عن القادة الأولين الذين ولّاهم أبو بكر في تنظيمه الأول، وهي تتفق على أن هؤلاء القادة كانوا خالد بن سعيد بن العاص، وعمرو بن العاص، ويزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة، وأبا عبيدة بن الجراح وعكرمة بن أبي جهل، ثم انضم إليهم خالد بن الوليد قادماً من العراق، غير أن المصادر تقدّم معلومات متباينة عن زمن تعيين كلٌ منهم والجهة التي أوكل إليه التقدم إليها، وعدد القوات التي كانت بإمرة كلٌ منهم ولم يكن فيهم من قاد جيشاً للقضاء على الردة غير عكرمة. ولم يولّ قائداً عاماً.

(1) ابن أعثم ١/١٤٩.

الفصل الثاني عشر

القواد والمعارك الأولى

القادة الأولون

يذكر الزهري، وسعيد بن المسيب والواقدي وأبو زرعة أن أبا بكر «بعث خالداً (ابن الوليد) على جيشه قبل العراق، وبعث إلى الشام ثلاثة أمراء: خالد بن سعيد بن العاص على جند، وعمرو بن العاص على جند، وشرحبيل بن حسنة على جند فلم يزل عمر بأبي بكر حتى عاد يزيد بن أبي سفيان على جند»[1]. وينقل موسى بن عقبة رواية الزهري هذه ويضيف «ثم نزع خالد بن سعيد، وأمر على جنده يزيد بن أبي سفيان، فأدركه بذي المروة»[2]

ويقول ابن شبة إن أول لواء عقده أبو بكر لواء خالد بن سعيد بن العاص[3]. ويقول الوليد بن مسلم تعليقاً على رواية الزهري إن «الأثبت هو أن يزيد وَلِيَ القيادة قبل أن يسير الجيش إلى الشام»[4].

وذكر ابن إسحاق أن أبا بكر ولّى كلاً من عمرو بن العاص وأبي عبيدة وشرحبيل بن حسنة.

---

(١) ابن عساكر ٤٤٨/١، وانظر ٤٤١/١، ابن أعثم ١١٢/١، فتوح البلدان ١٠٧.

(٢) ابن عساكر ٤٥٣/١ ـ ٤.

(٣) الطبري ٢٠٧٩/١ وعن ابن شبة، ابن سعد ٣ ـ ١٦٨/٢.

(٤) ابن عساكر ٤٥٣/١ ـ ٤.

وذكر سعيد بن المسيب والواقدي أن أبا بكر عقد لثلاثة قواد: عمرو بن العاص، ويزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة[١].

وذكر المدائني أن أبا بكر أمد يزيداً وشرحبيل وأبا عبيدة[٢]

وذكر ابن أعثم أن الأمراء كانوا معاذ بن جبل، وشرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبي سفيان[٣]. ولم يذكر غيره ولاية معاذ ويقول سيف بن عمر إن أبا بكر اتبع يزيداً شرحبيل بن حسنة ثم أبا عبيدة[٤].

تتفق هذه الروايات على أن أوائل من ولّوا قيادة الجيوش في جبهة بلاد الشام هم خالد بن سعيد، وعمرو بن العاص، ويزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة، ولكنها تختلف في تحديد زمن ولايتهم ودور كل منهم، فيقول ابن إسحاق أن أبا بكر حجّ سنة ١٢ ثم أرسل البعوث[٥]، وأنه استشار أصحابه في ربيع الأول، واستنفر أهل اليمن من ربيع الآخر[٦]

ويروي البلاذري أن أبا بكر «كان عقد هذه الألوية يوم الخميس لمستهل صفر سنة ١٣، وذلك بعد مقامَ الجيوش معسكرين بالجرف المحرم كله، وأبو عبيدة يصلي بالناس»[٧].

إن خالد بن سعيد بن العاص كان أبوه من المسلمين الأوائل، وممن هاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية[٨]، وظل فيها إلى أن عاد مع أصحابه بعد صلح الحديبية وكان خالد من كتّاب الرسول (ص)، وكتب له معظم الكتب التي

---

(١) ابن عساكر ١/٤٠٥، ٤٤٧، وانظر فتوح البلدان ٣٧.
(٢) الطبري ١/٢٠٤٧.
(٣) ابن أعثم ١/١٠٢
(٤) الطبري ١/٢٠٨٥.
(٥) الطبري ١/٢٠٧٨.
(٦) تاريخ خليفة ٨٧ (عن ابن إسحق)، تاريخ الأزدي ٩٠؛ ابن عساكر ١/٤٤٥.
(٧) فتوح البلدان ١٢٨؛ الطبري ١/٢٠٧٨.
(٨) تاريخ خليفة ١٦٢؛ ابن سعد ٣ ـ ١/١٣٩؛ نسبة المسعيد ٩

وجهها الرسول (ص) إلى أهل اليمن، ثم ولّاه الرسول (ص) صدقات مراد وزبيد ومذحج في اليمن،[1] كما ولّى أخوته: أباناً على البحرين، وعَمْراً على تيماء ووادي القرى وخيبر وقرى عربية، والحكم على السوق[2]. ولما توفي الرسول (ص) عاد إلى المدينة، وتلكأ في مبايعة أبي بكر الذي ولّاه قيادة جيش توجّه إلى تيماء وكتب له أني قد استعملتك على من مررت به من بلي وعذرة وسائر قضاعة ومن سقط هناك من سائر العرب، فاندبهم إلى الجهاد ورغبهم فيه فمن سقط منهم فاحمله وزوّده ورافق بينهم واجعل كل قبيلة على حدة وعمل على ضم القبائل العربية حول تيماء إلى جيش الإسلام، وكان عمر معارضاً لتوليته على أن فيه ضعفاً[3]، وكان «أول الأمراء الذين خرجوا إلى الشام»[4]. وكان ممن معه سهيل بن يزيد بن عمرو وأشباهه من أهل مكة[5] وأدرك الروم خطره فوجهوا إليه قوة بقيادة باهان تغلبت عليه في ربزاء عند آبل الزيت فانهزم إلى ذي المروة[6] داخل الحجاز، على ستين ميلاً من المدينة، وظل مقيماً فيها مع جنده إلى أن أمره أبو بكر بالعودة والانضمام إلى الجيوش الإسلامية، وقتل في أجنادين مع أخيه أبان[7].

أما عمرو بن العاص السهمي فهو من دهاة العرب، أسلم بعد صلح الحديبية، وأرسله الرسول (ص) إلى عُمان لإسناد حاكمها الجلندى الذي أعلن انضمامه إلى الإسلام ودولته، ثم عاد إلى المدينة فولّاه الرسول (ص) صدقات قضاعة القاطنة في الأطراف الشمالية الغربية من بلاد الشام.

---

(1) فتوح البلدان ١١٨.
(2) ابن سعد ٣ ـ ٢/ ٦٦٨؛ الطبري ١/ ٢٠٧٢ عن ابن شبة
(3) ابن عساكر ٣٤/ ٥١
(4) الطبري ١/ ٢٠٨٤.
(5) ابن سعد ٣ ـ ٢/ ١٧٠؛ ابن عساكر ١/ ٣٤٣.
(6) ابن سعد ١ ـ ٢/ ٦٦؛ ابن عساكر ١/ ٤٤٨، ٤٥٤.
(7) ابن عساكر ٣٤/ ٣٥٩

فأما شرحبيل بن حسنة فأصله من كندة، سكن مكة حليفاً لبني جمح، وهاجر مع إخوته إلى الحبشة في الهجرة الثانية، وعاد منها مع جعفر بن أبي طالب بعد صلح الحديبية[1] ولم يذكر له دور ملحوظ في زمن الرسول (ص) سوى أنه ممن شهد كتاب صلح يوحنا بن رؤبة صاحب قصاء[2]

ويذكر سيف بن عمر أن أبا بكر أتبع يزيد شرحبيل بن حسنة ثم أبا عبيدة[3]، غير أنه لم يذكر له دور في أخبار الحوادث الأولى، وترد أخباره في معركة اليرموك، وما تلاها من حوادث.

أما يزيد بن أبي سفيان فهو ممن أسلم بعد الفتح، ابن زعيم قريش، وأخو أم حبيبة زوجة الرسول (ص) إلا أنه لم يذكر له دور في حياة الرسول (ص) وفي حركات القضاء على الردة، وولّاه أبو بكر أحد الجيوش الثلاثة التي أعدها إلى بلاد الشام وأمره على جند عظيم وهم جمهور من انتدب له، وفي جنده سهيل بن عمرو.. وكثير من أهل مكة، وقد وجّه إلى دمشق وتحرك إلى تبوك فالبلقاء، وكان جيشه ممن أصبح في ذي المروة سبعة آلاف، وكان في الأصل ثلاثمائة، ثم أمدّه بالف، ولم يذكر لجيشه حركات بارزة في أوائل تقدّمه، مما يدل على أنه لم يلق مقاومة، غير أنه لما تكاثرت الجيوش كان على ربع من أرباعها[4] وشارك في فتح بصرى[5] وفي معركة مرج الصفر[6] وفتح دمشق الأول، ثم أرسل بعدها إلى دمشق[7] وكان له دور بارز فيها، وكذلك كان قائداً لأحد الأرباع[8] وفي معركة اليرموك[9]، وفي فتح دمشق الثاني، ثم وُلّيَ دمشق بعد وفاة أبي عبيدة

(١) ابن سعد ٤ ـ ١/ ١٣٠
(٢) ابن عساكر ١/ ٤٢٠ ـ الطبري ١/ ٢٠٩٢، ٢٠٩٤.
(٣) الطبري ١/ ٢٠٨٥
(٤) ابن عساكر ١/ ٤٥٤، ٣٥٩.
(٥) ابن عساكر ١/ ٤٧١.
(٦) ابن عساكر ١/ ٤٨١.
(٧) ابن عساكر ١/ ٤٨٥.
(٨) ابن عساكر ١/ ٤٥٧.
(٩) ابن عساكر ١/ ٢٥٣.

أما أبو عبيدة بن الجراح فهو من المسلمين الأولين، ومن الصحابة المهاجرين؛ شارك في معظم غزوات الرسول (ص) وقاد بعض السرايا؛ وكان واحداً من المهاجرين الثلاثة الذين حضروا اجتماع السقيفة، ورشحوه للخلافة فلم يوافق، وتم انتخاب أبي بكر الذي كان يوليه ثقة كبيرة، وأبقاه إلى جانبه فلم يولّه قيادة أيٍّ من الجيوش الإسلامية التي قضت على حركات الردة والانشقاق، ثم أنفذه في زمن لم تحدده المصادر فسار إلى التوكية، فالجابية، ويدل عدم ذكر المصادر لتواجده في المعارك الأولى على أنه أنفذ بعد القادة الأولين، ولعله أنفذ بعد معركة أجنادين وأول ذكر لدور بارز له كان في معركة اليرموك حيث ولّاه عمر القيادة العليا للجيوش الإسلامية[1]

أما عكرمة فهو ابن أبي جهل زعيم مشركي قريش المناوئين للإسلام ثم قتل في معركة بدر؛ ولما فتح الرسول (ص) مكة هرب عكرمة إلى الجنوب، ثم عفا عنه الرسول (ص) استجابة لالتماس أمه، ولما وَلِيَ أبو بكر الخلافة أنفذه للقضاء على ردة أهل عُمان وحضرموت، فأنجز مهمته بنجاح بعد جهود كبيرة[2]. ثم أنفذ لنجدة زياد بن لبيد البياضي في حضرموت ثم عاد إلى المدينة قافلاً، وغازياً فيمن كان معه من أهل تهامة وعُمان والبحرين والسرو، فأمر أبو بكر باستبدالهم، وسُمِّيَ جيشهم جيش البدال[3]، ثم أنفذه أبو بكر بعد هزيمة خالد بن سعيد[4].

ومن القواد البارزين في جبهة بلاد الشام خالد بن الوليد، قام بانتصارات عظيمة في القضاء على معظم حركات الردة والانشقاق في الجزيرة، ثم قام بحركات ناجحة في غرب العراق، ثم طلب منه أبو بكر أن يلتحق ببلاد الشام وينضمّ إلى قادتها، فسار مسرعاً قاطعاً الصحراء في مسالك صعبة اختلفت الروايات في وصفها، وشارك منذ وصوله جبهة بلاد الشام بدور متميز في المعارك كافة، فاستحق بجدارة أن يعتبر أعظم قائد أنجبه الإسلام.

---

(١) فتوح البلدان ١٦٢، الطبري ١/٢٠١٣.
(٢) الطبري ١/١٩٧٧، ١٩٨٠، ٢٠٠٧.
(٣) الطبري ١/٢٠٠١.
(٤) ابن عساكر ١/٥٤٨ ـ ٤٥١



الفصل الثالث عشر

الحركات الأولى ومعاركها

تتفق الروايات على أن أول جيش إسلامي أنفذه أبو بكر بعد جيش أسامة هو الذي وَلِيَه خالد بن سعيد بن العاص «وكان لواؤه أول لواء عقده أبو بكر»[1]. وكان أبو بكر قد عيَّن خالداً على تيماء وأمره أن لا يبرحها وأن يدعو من حوله بالانضمام إليه، فجمع جموعاً كثيرة[2]، ويُروى أنه كان معه سهيل بن يزيد بن عمرو وأشباهه من أهل مكة. فوجَّه إليه الروم قوة بقيادة باهان تغلبت عليه في زيزاء عند آبل الزيت فانهزم إلى ذي المروة داخل الحجاز[3]، وهي على ستين ميلاً من المدينة[4].

ولما بدأت استجابة العرب لدعوة أبي بكر، اجتمع إليه «أربعة وعشرون ألفاً من المهاجرين والأنصار ومهاجرة الفتح أمداد أهل اليمن، فعقد الألوية للأمراء الذين اختارهم للقيادة، وكان عقد هذه الألوية يوم الخميس لمستهل صفر سنة ١٣ بعد مقام الجيوش معسكرين بالجرف المحرم كله، وأبو عبيدة يصلي بالناس»[5].

---

(١) ابن سعد ٣ ـ ٢/ ١٦٨؛ الطبري ١/ ٢٠٧٩ عن ابن شبة؛ ابن عساكر ١/ ٤٤٨ عن ابن إسحاق

(٢) الطبري ١/ ٢٠٨٠؛ ابن عساكر ١/ ٤٥١

(٣) الطبري ١/ ٢٠٨٥.

(٤) ابن سعد ٣ ـ ٢/ ١٧٠؛ ابن عساكر ١/ ٣٤٣، ٤٥٤

(٥) فتوح البلدان ١٠٦، ١٠٧.

ويذكر سيف بن عمر أن خالد بن سعيد عندما هزمه باهان في تيماء قَدِمَ وافداً من عند خالد بن الوليد بن عقبة على بعض قضاعة، مما يشير إلى تأخر إسهامه في الحركات الأولى من فتوح الشام،[1] وإلى أن إسناده يدل على أن ميدان حركاته كان في الجهات الشرقية، ويذكر ابن عساكر أنه حضر فتح بصرى،[2] ومعركة أجنادين واليرموك،[3] حيث كان على أحد أرباع الجيش،[4] وكان من شهود فتح دمشق.

ذكر سيف بن عمر أنه بعد هزيمة خالد بن سعيد في زيزاء «اتخذ أبو بكر أبا عبيدة بن الجراح، ويزيد بن أبي سفيان، وأوكل كلاً منهما بالغارة وألا يوغلوا حتى لا يكون وراءهم أحد من عدوهم»[5]، وذكر أيضاً أن أبا بكر استعمل يزيد بن أبي سفيان وأبا عبيدة بن الجراح على من اجتمع إليه، وأمره على حمص،[6] ويذكر أن أبا عبيدة كان معه سبعة آلاف،[7] ويذكر ابن أعثم أن أبا عبيدة سلك الطريق من المدينة إلى وادي القرى، فالأقرع من بلاد الحجر، فالمنار، فالأخضر، فجنينة، فتبوك[8]، غير أن أبا عبيدة بن الجراح لم يذكر في أخبار المعارك الأولى، وأول ذكر له كان في معركة اليرموك، مما قد يدل على أنه لم يكن من أول القواد الذين اتمدوا في أولى الحملات.

يقول سيف بن عمر إن أبا بكر اتبع يزيداً شرحبيل بن حسنة، ثم أبا عبيدة ممداً له،[9] وذكرت بعض الروايات أن الأمراء على الشام كانوا ثلاثة: عمرو بن العاص، ويزيد بن أبي سفيان، وشرحبيل بن حسنة.[10] وذكر المدائني أن

---

(١) ابن عساكر ١/ ٤٧٠

(٢) ابن عساكر ١/ ٤٧٩؛ الأزدي ٣٧٢

(٣) الأزدي ١٨٨، ٢٠٦؛ ابن عساكر ١/ ٤٤٠.

(٤) الأزدي ١٨٨؛ ابن عساكر ١/ ٤٤٠.

(٥) الطبري ١/ ٢١١١.

(٦) الطبري ١/ ٢٠٨٤

(٧) الطبري ١/ ٢١٠٧

(٨) ابن أعثم ١/ ٨٥؛ وانظر في وصف جغرافية المنطقة «شمال الحجاز لعبد الله الوهيبي»

(٩) الطبري ١/ ٢٠٨٥.

(١٠) ابن أعثم ١/ ١١٢ ـ ١٣؛ ابن عساكر ١/ ٤٤١

«شرحبيل كان في سبعة آلاف»[1]، ولكنه لم يذكر العشائر التي ينتسب إليها جيشه ويذكر سيف أن شرحبيل نزل الأردن[2]؛ ولم تذكر الأخبار دوراً بارزاً لشرحبيل في حوادث المعارك الأولى، وإنما ذكرت أنه كان في اليرموك على الميمنة[3].

وفي وجهات هؤلاء ذكر ابن إسحاق أن عمرو بن العاص وجّه إلى فلسطين، وأن يزيداً وأبا عبيدة وجّها إلى البلقاء[4]، وذكر ابن إسحاق أن شرحبيل وجّه إلى البلقاء[5]، وذكر المدائني أن يزيداً وجّه إلى البلقاء، وشرحبيل إلى بصرى، وأبا عبيدة إلى الجابية، ثم أمدّهم بعمرو فنزل وادي العربة[6].

وذكر البلاذري أن عمرو بن العاص وجّه إلى فلسطين، وشرحبيل إلى الأردن، ويزيداً إلى دمشق، وأن عمرو بن العاص سلك طريق إيلة إلى فلسطين أما يزيد وشرحبيل فقد وجّها إلى تبوك[7].

وفي رواية البلاذري أن شرحبيل وجّه إلى الأردن ففتحها عنوة ما خلا طبرية، وأن يزيداً وجّه إلى الأردن ودمشق، وعَمْراً إلى فلسطين.

ويذكر أن أبا بكر استعمل أبا عبيدة بن الجراح على من اجتمع إليه وأمّره على حمص، وأنه كان في سبعة آلاف، ولم تُذكر العشائر التي تنتسب إليها مقاتلته.

يذكر الطبري أن أبا عبيدة سمت طريقه، ويدل سياق الكلام على أنه سلك طريق المُعْرِقة الذي سلكه عمرو ويقول ابن أعثم إن أبا عبيدة سلك الطريق من

---

(١) الطبري ١/٢١٠٧.
(٢) الطبري ١/٢٠٩٢، ٢٠٩٤، ٢١٠٥.
(٣) الطبري ١/٢٠٩٣، ٢٠٩٤.
(٤) تاريخ خليفة ١٨٧ سير أعلام النبلاء ١/٣٧٦
(٥) ابن عساكر ١/٤٤٩.
(٦) الطبري ١/١/٢١١١.
(٧) الطبري ١/ ٢٠٨٤

المدينة، فوادي القرى، فالأقرع من بلاد الحجر فالمار، فجنينة فتبوك[1]. ويقول الطبري إن أبا عبيدة كان في اليرموك في القلب[2].

يقول سيف إن شرحبيل بن حسنة قدم فندب معه الناس ثم استعمله أبو بكر على الوليد فقدم شرحبيل على خالد ففصل بصحابه إلا القليل.[3] ويقول أيضاً إن أبا بكر اتبع يزيداً شرحبيل بن حسنة، ثم أبا عبيدة ممداً له، وهذا يظهر أن شرحبيل أرسل قبل أبي عبيدة، ومما يزيد هذا أن عدداً من الروايات ذكرت أن الأمراء على الشام كانوا ثلاثة: عمرو بن العاص، ويزيد بن أبي سفيان، وشرحبيل بن حسنة، ويذكر أن شرحبيل أرسل ردءاً لخالد بن سعيد[4].

ويذكر المدائني أن شرحبيل كان في سبعة آلاف، ولكنه لم يذكر العشائر التي ينتسب إليها الرجال في جيشه[5] ويذكر سيف أن شرحبيل سلك طريقه[6]، ولعله يقصد طريق التبوكية الذي سلكه يزيد، وأن شرحبيل نزل الأردن ويقال بصرى،[7] وكان شرحبيل في اليرموك على الميمنة[8].

ويذكر ابن إسحاق أن شرحبيل ويزيد وأبا عبيدة سلكوا التبوكية[9]. ويذكر ابن أعثم أن أبا عبيدة سار عن المدينة لوادي القرى فالأقرع فالمار فالجنينة فتبوك، وتوجّه إلى الجابية[10].

---

(1) الطبري ١/٢١٠٧.
(2) الطبري ١/٢٠٨٥.
(3) ابن أعثم ١/١٥٠.
(4) الطبري ١/٢٠٩٣.
(5) الطبري ١/٢٠٨٥.
(6) ابن عساكر ١/٤٤٧؛ ابن أعثم ١/١٠٢ ـ ٣.
(7) الطبري ١/٢١٠٧.
(8) الطبري ١/٢٠٩٣، ٢٠٩٤.
(9) الطبري ١/٢١٠٨.
(10) ابن أعثم ١/١٥٠.

تقدم القوات العربية إلى فلسطين

كان عمرو بن العاص من أسبق القواد في التقدم إلى جبهة بلاد الشام، ولا بدّ أنه كان من القوة التي قادها عدد من رجال قضاعة، إذ إن أبا بكر كان قد كتب له «إني قد استعملتك على من مررت به من بلي وعذرة وسائر قضاعة، ومن سقط هناك من العرب، فاندبهم على البر والجهاد، فمن تبعك منهم فاحمله وزوّده، ورافق بينهم، واجعل كل قبيلة على حدتها ومنزلتها»[1] وذكر أيضاً أن عمرو بن العاص عندما تحرك إلى بلاد الشام قدّم أمامه مقدمة عليهم سعيد بن الحارث السهمي، ودفع لواءه إلى الحجاج بن الحارث السهمي، وكان جند عمرو الذين خرجوا معه من المدينة ثلاثة آلاف، فيهم ناس كثير من المهاجرين والأنصار، وقد تم جمع هذه القوات بالندب.

ويتبين من هذا أن عماد القوة التي سارت مع عمرو بن العاص هي عشائر بلي وعذرة ومن يقربهما، وانضم إليها كثير من المهاجرين والأنصار من أهل المدينة، رتبوا تبعاً لانتمائهم القبلي «كل قبيلة على حدتها ومنزلتها» وللسهميين مكانة خاصة في القيادة. وعددهم ثلاثة آلاف، ثم أردفوا قوات أخرى، لعل كثيراً منها من أهل اليمن، فأصبحوا سبعة آلاف وخمسمائة[2].

سلك عمرو بن العاص في تقدُّمه طريق المُعْرِقة، وهو الذي كان يسلكه الحاج المصري فيما بعد، وهو طريق يمر بأرض قليلة المدن والسكان، وليست فيها حاميات رومية، فمؤخرته مؤمنة ووصل إلى أيلة، وهي ميناء العقبة الحالي، وتقع على رأس الخليج المسمّى بها حالياً، وكانت ميناء رئيساً وعليها والٍ، ولم تكن بها حامية رومية فاستسلمت للعرب.

ثم توجّه منها إلى غزة، وهي آخر ميناء كبير في الأطراف الغربية من

---

(1) ابن سعد ۳ ـ ۲/ ۱۲۰۰؛ ابن عساكر ۱/ ٣٤٢.

(2) ابن أعثم ۱/ ۱۲۳؛ ابن عساكر ۱/ ٤٥٢، ٤٤٦، وانظر تاريخ خليفة ۸۲.

فلسطين وكانت إحدى المحطات الثلاث الكبرى لتجارة المكية قبل الإسلام[1]، وفيها دفن هاشم جد الرسول (ص)، واشتبك في طريق تقدُّمه مع قوة تبلغ ثلاثة آلاف عليها بطريق (حاكم) ودحرها في معركة عند الداثن، على بعد اثنين وأربعين ميلاً منها، فاضطر البطريق إلى طلب الصلح[2]. ويقول البلاذري نقلاً عن الواقدي إن أبا عبيدة وشرحبيل شاركا في هذه المعركة.[3] ولقد نبّه انتصار عمرو بن العاص في الداثن الرومَ إلى خطر تقدُّم العرب الذي يهدد فلسطين والقدس.

معركة وادي العرابة

أدرك عمرو بن العاص قوة الروم الحديدة فلم يشتبك معهم في قتال ثانٍ، وانسحب إلى وادي العرابة قرب البحر الميت[4]، وطلب من أبي بكر إمداده بقوات[5]

وأدرك الروم قوة العربَ واندفاعهم وعملوا على صدها، فانتقل هرقل من القسطنطينية إلى حمص وحشد جيشاً قوامه ثلاثة آلاف مقاتل عليهم ستة قواد من الروم،[6] على رأسهم أخوه تيودور، ويسميه العرب ثادرق؛ وقرر الالتفاف على القوات العربية من الجنوب، واختار لمعسكره وادي العرابة، وهي رقعة من الأرض بين الرملة ووادي جبرين قريبة من نهر اليرموك، ويجري عندها وادي السمط وهو وادٍ عريض تسيطر عليه خربة يرموث الواقعة فوق رابية متموجة تنحدر نحو الوادي، وحصنوا منطقة نزولهم وحفروا الخنادق حولها، وهذه

(1) انظر كتاب التجارة مكة لكرون ١١٩ ـ ٢٠.
(2) ابن عساكر ٤٦١/١ (عن الوليد بن مسلم)
(3) فتوح البلدان ١٠٨ عن الواقدي
(4) تاريخ خليفة ١١٠٨ الطبري ٢١٢٥/١.
(5) فتوح البلدان ١٠٨.
(6) فتوح البلدان ١٠٨؛ ابن عساكر ٤٦١/١؛ تاريخ الأزدي ٧٧.

المنطقة تهيمن على ملتقى الطرق الممتدة بين جبرين من جهة وكل من غزة، وبيت المقدس واللطرون؛ ووضع الروم قوة في ثنية جلق في جنوب الجابية على الطريق بين دمشق وأذرعات لتأمين مؤونة قواتهم، إذا أدهمتهم قوات شرحبيل ويزيد بن أبي سفيان. ويروي أبو مخنف أن الروم في العربة كانوا ثلاثة آلاف عليهم ستة قواد من الروم.

أدرك العرب خطر تحركات جيش الروم، وكانت لهم فيها قوات يزيد بن أبي سفيان، وهي لا تكفي لدحر الروم؛ وأنفذوا أبا أمامة الباهلي فأوقع بهم وقتل أحد قادتهم،[1] لكن إنجازه لم يكن حاسماً، فجمعوا قواتهم التي بإمرة يزيد بن أبي سفيان، وشرحبيل، وعمرو بن العاص وأبي عبيدة بن الجراح؛ واشتبكوا مع الروم في معركة انتصروا فيها عليهم وقتلوا أحد قادتهم؛ ولم تذكر المصادر من قتل من العرب فيها، مما يدل على أنها لم تكن كبيرة أو حاسمة، وترجع أهميتها إلى أنها أول معركة واسعة مع جيش أنفذه هرقل.

قدوم خالد وقواته

قدِمَ خالد بن الوليد بعد أن أمره أبو بكر بترك حركاته في جبهة العراق، والتوجه إلى بلاد الشام، فقطع مع قواته بادية سالكاً مسالك صحراوية خطرة، وردت عنها عدة روايات[2]، وكان أول ما قام به عند وصوله الغارة على غسان في مرج راهط، فدان له أهلها[3] وكانت غارته في ١٩ صفر سنة ١٣، ثم اقترب من دمشق فصالحه بِطريقها على ماله، وتابع مسيرته إلى بصرى وهي في أدنى بلاد الشام[4]. وكانت لها أهمية خاصة لتجار قريش فكانوا يقصدونها لتجاراتهم وإليها سافر الرسول (ص) مرتين قبل الإسلام؛ فهاجمها خالد

(١) فتوح البلدان ١٠٨.
(٢) انظر: «الفتوح الإسلامية» لدونر؛ وانظر لأوامونزيل
(٣) فتوح البلدان ١٢٦؛ الطبري ١/٢١٠٣، ٢١٧٢
(٤) الطبري ١/١١٠٧.

وفتحها، ويسَّر فَتْحَها السيطرة على حوران وأذرعات[1] والبثنية المشهورة بالحنطة التي تنتجها، وقَدِمَ عليه في بصرى يزيد بن أبي سفيان، وأبو عبيدة، وشرحبيل. ثم تقدَّم مسنداً لعمرو بن العاص[2] وشارك في المعارك التالية كافة وانتصر فيها.

وصالح أبو عبيدة، مآب من أرض البلقاء كصلح بصرى[3].

معركة أجنادين

لما انتصر العرب في وادي العربة وبصرى وحوران أصبحوا مهيمنين على معظم فلسطين والأردن والأطراف الجنوبية من بلاد الشام دون أن يقاومهم أهل البلاد وإنما أظهروا تعاطفاً معهم؛ وأدرك الروم الخطر الذي يهدد سلطانهم فعملوا على صده، وأرسلوا قوات تجمعت في أجنادين من كورة جبرين على بعد خمسة وعشرين كيلومتراً جنوب شرقي بيت المقدس، بينها وبين الرملة وجرش وبيت جبرين[4]. وهي تقع عند خربة يرموث قرب اليرموك، وفيها ملتقى الطرق بين بيت جبرين وبيت المقدس وغزة واللطرون والرملة، وأرضها متموجة غير وعرة تصلح لتجمُّع قوات كبيرة وتسهل فيها حركة الخيالة وتقع خربة يرموث فوق رابية تنحدر نحو وادي السمط العريض الذي يمتد جنوبها مكوّناً خطاً دفاعياً. وتمتد في أطرافها الجنوبية روابٍ تسمى الجنابتين اتخذ عليها العرب مواقعهم في المعركة؛ وهي جنوب الطريق الموصل بين بيت المقدس وقيسارية[5].

تحرك جيش الروم من حمص يقوده تيودور، أخو الامبراطور، وتسمّيه

---

(1) فتوح البلدان ١١٠، وانظر عن حوران ١١٢ ـ ٣.

(2) الطبري ١/ ٢١٢٥.

(3) فتوح البلدان ١٢٥.

(4) معجم البلدان ١/ ٣٧٥؛ تاريخ خليفة ٥٧؛ الأزدي ٢١٨؛ سير أعلام النبلاء ١/ ١٨.

(5) انظر المقال القيّم عن أجنادين للعميد طه الهاشمي المنشور في مجلة المجتمع العلمي العراقي، انظر تاريخ خليفة ٨٧؛ فتوح البلدان ١١٧؛ ابن عساكر ١/ ٤٤٧

المصادر العربية تذارق[1]. وضع الروم قوة في ثنية جلق جنوب الجابية على الطريق بين دمشق وأذرعات لمراقبة القوات الإسلامية ويبدو أنهم كانوا يستهدفون حماية بيت المقدس.

أما العرب فتقدموا من وادي العربة، وتجنّبوا المدن المحصنة وعسكروا في الجنابتين، وهي الهضبة الجنوبية عند وادي السمط، لا أن الروم سبقوهم في احتلال الروابي الشمالية[2].

تتفق الروايات على أن الالتحام بين العرب والروم حدث في جمادى الأولى سنة ١٣، وهو يصادف تموز، غير أنها تختلف في تحديد يوم حدوث المعركة[3]، وكانت المعركة حامية وذكرت المصادر أسماء عدد كثير ممن استشهد من المسلمين فيها، ويُروى أن عدد القوات الإسلامية كان حوالى العشرين ألفاً. وكانت قيادة الجيوش العربية لعمرو بن العاص، وعلى الميمنة معاذ بن جبل، وعلى الميسرة سعيد بن جديم، وعلى جناح الميمنة يزيد بن أبي سفيان، وعلى جناح الميسرة شرحبيل بن حسنة[4].

وقد أسفرت المعركة عن اندحار قوات الروم، فانسحبت فلولهم إلى قيسارية وغزة ودمشق.

كانت معركة أجنادين أولى المعارك الكبيرة التي انتصر فيها العرب على الروم، وشارك فيها معظم القوات الإسلامية، التي تبلغ قرابة عشرين ألفاً

(١) تاريخ خليفة ٨٧ عن إسحاق
(٢) تاريخ خليفة ٨٧، فتوح البلدان ١١٢، ابن عساكر ١/ ٤٤٧.
(٣) ابن إسحاق (تاريخ خليفة ٨٧)، والواقدي (تاريخ الأزدي ٤٦)، تاريخ اليعقوبي ٢/ ١١٣، تاريخ الإسلام للذهبي ١/ ١٧٥
(٤) ابن عساكر ١/ ٤٧٩ (عن ابن إسحاق)؛ الطبري ١/ ٢١٢٦، الأزدي ٢٦١، وانظر دراسات طه الهاشمي، وبحث دي غويه عن فتح العرب للشام.

معركة فحل:

أظهر انتصار العرب في أجنادين قوتهم وعزمهم على توسع دولتهم وإزاحة الروم، بعد أن أمن سيطرتهم على فلسطين والأردن، ويسّر تقدُّمهم إلى دمشق. وكان لهذه المعركة وقع مؤثر في هرقل، فيروي البلاذري أنه عندما وصل اليه خبر اندحار الروم في أجنادين «نخب قلبه، وسقط في يده وارتعب، فانتقل من حمص إلى أنطاكية، واستنفر الأرمن فلم يستجيبوا له لتأخره في دفع رواتبهم، كما استنفر عرب الجزيرة وبعث إليهم رجلاً من خاصته وثقاته».[1] ويدل استنفار الأرمن وأهل الجزيرة على ضعف أمله في الاعتماد على المستعربة من عرب جنوب بلاد الشام، فأراد الاعتماد على قوات من شمال بلاد الشام، ولم تذكر المصادر أفراداً أو جماعات من العرب كانوا مع الروم في معركة فحل[2].

يذكر سيف بن عمر أن قائد الروم سقلار بن مخراق، يليه في القيادة نسطورس ويرى دي غويه أن نسطورس تحريف أستاسيوس، وأن سقلار هو تحريف كابيلاروس، وهو لقب رئيس التشريفات.

ذكر البلاذري أنه قتل من الروم في معركة فحل قاتلهم «زهاء عشرة آلاف معه، وتفرّق الباقون في مدن الشام، ولحق بعضهم بهرقل»[3]، وقد يكون في هذا الرقم مبالغة، إلا أنه يشير إلى العدد الكبير الذي حشده الروم في المعركة، وربما كان عددهم حوالي العشرين ألفاً.

ووردت روايات مختلفة عن قائد القوات العربية في معركة فحل، فروى ابن

---

(1) فتوح البلدان ١١٤

(2) تاريخ خليفة ٨٨، فتوح البلدان ١١٥، ١١٨؛ تاريخ دمشق لابن عساكر ١/٤٧٨ ـ ٤٨١ (عن موسى بن عقبة). ويذكر خليفة أنها حدثت في ٢٨ ذي الحجة (ابن عساكر ١/٤٨٠)؛ أما ابن إسحاق فيذكر أنها حدثت في جمادي الأولى، تاريخ خليفة ٨٨؛ ابن عساكر ١/٤٨١.

(3) فتوح البلدان ١١٤

عساكر أن الروم عندما تقدموا إلى فحل لحقهم عمرو بن العاص[1]، وفي هذا إشارة إلى أن عمرو بن العاص كان قائد لقوات. وفي رواية أن القائد العربي كان أبا عبيدة، وعلى الجناح عمرو بن العاص وعلى الخيالة ضرار وعلى المقدمة خالد بن الوليد[2].

وذكر ابن إسحاق أن الأمير في فحل كان خالد بن الوليد[3].

وفي رواية أنه كان على الناس شرحبيل بن حسنة، وعلى المقدمة خالد وعلى المجنّبتين أبو عبيدة وعمرو بن العاص، وعلى الخيل ضرار وعلى الرجل عياض، وفي رواية أن أبا عبيدة سرّح القادة: أبا الأعور السلمي، وعمرو بن يزيد الجرشي، وعامر بن حثمة، وعمرو بن كليب اليحصبي، وعمارة بن مخش. وقيادة أبي عبيدة للمعركة تعني أنها حدثت بعد اليرموك، وهو ما يشك فيه

وذكر البلاذري أن وقعة فحل كانت لليلتين بقيتا من ذي القعدة وأمير الناس أبو عبيدة بن الجراح، وقد كان عمر بن الخطاب كتب إليه بولايته الشام وإمرة الأمراء، ويذكر في رواية أخرى أن خالد بن الوليد كان أمير الناس في الحرب. كما يذكر أن الذي تولى العقد مع أهل فحل أبو عبيدة بن الجراح، وقال تولاه شرحبيل بن حسنة[4] ويذكر بن أعثم أن خالد بن الوليد كان في الميمنة ويزيد بن أبي سفيان وشرحبيل في الميسرة، كما يذكر أن قيس بن هبيرة وهاشم بن عتبة شاركا في المعركة[5].

ويروي سيف بن عمر «كان على الناس شرحبيل بن حسنة، فبعث خالداً على المقدمة، وأبا عبيدة وعَمْراً على مجنّبتيه، وعلى الخيل ضراراً، وعلى الرجل عياضاً»[6]. ويقول في مكان آخر، سرح أبو عبيدة إلى فحل القادة: أبا

---

(١) ابن أعثم ١/ ١٨٠؛ ابن عساكر ١/ ٤٤٧، ٤٨١.
(٢) تاريخ خليفة ٨٨؛ الطبري ١/ ٢١٤١؛ تاريخ الإسلام للذهبي ٢/ ٤٧٧.
(٣) تاريخ خليفة ٨٨؛ تاريخ الإسلام للذهبي ١/ ١٧٦
(٤) فتوح البلدان ١١٤.
(٥) الطبري ١/ ٢١٥٧؛ ابن عساكر ١/ ٤٨٦؛ ابن أعثم ١/ ١٨٠؛ الطبري ١/ ٢١٤٦.
(٦) الطبري ١/ ٢١٥١؛ ابن عساكر ١/ ٥١٤

الأعور السلمي، وعمرو بن يزيد الجرشي وعامر بن حثمة، وعمرو بن كليب، وعمارة بن مخش قائد الناس ومع كل رجل خمسة قواد.

إن مشاركة كل القواد العرب البارزين في موقعة فحل يدل على أن كافة القوات العربية المتيسرة في جبهة بلاد الشام، شاركت فيها، وخصوصاً أن المصادر لم تذكر أن العرب خلفوا منها حاميات في المناطق التي هيمنوا عليها، والراجح أن قواتهم كانت تبلغ حوالى لعشرين ألفاً، ويشير تعداد الانتسابات القبلية للقادة الذين ذكر سيف بن عمر مشاركتهم فيها إلى أنهم كانوا من عشائر متعددة، وأن العشائر التي انتسب إليها من ذكرت المصادر استشهادهم فيها يشير إلى كثرة أهل مكة ومهاجرتها في هذه المعركة.

نشبت المعركة في فحل قرب بيسان ولا يزال موقعها يسمى حتى اليوم خربة فحل، وهي منطقة تكثر فيها المياه، وقد كسر الروم بعضها إبان المعركة فأوحلت الأرض، ومن هذا سُمِّيَتْ في قول سيف بن عمر موقعة فحل، أو ذات الردغة، أو بيسان[1]. والردغة الماء والطين والوحل[2].

يروي أبو مخنف[3] وسيف بن عمر أن فحل جرت بعد فتح دمشق، غير أن عامة الرواة من أهل الشام، وأهل الحجاز يذكرون أنها جرت بعد ثلاثة أشهر من انتصارهم في أجنادين أي في شهر ذي القعدة من سنة ١٣[4]؛ ويذكر ابن عساكر أن أبا عبيدة بعث ذا الكلاع بين دمشق وحمص درءاً، وبعث حكيماً ومسروقاً وعلى الخيل عياضاً، وعلى الرجالة شرحبيلاً، والأمير يزيد[5]. لم يَرِدْ وصف لأحداث معركة فحل، غير أن كثرة من ذكر استشهادهم فيها يدل على ضراوة المعركة، وأنها حدثت قبل اليرموك التي تحطم فيها جيش الروم، ولم

---

(١) ابن عساكر ٤٨٦/١
(٢) لسان العرب ٣٠٨/١.
(٣) ابن عساكر ٤٨٥/١.
(٤) ابن عساكر ٤٨٠/١ عن الواقدي، وانظر في كتاب ابن عساكر ٤٧٨/١ عن الزهري، الوليد بن مسلم ٤٦١/١؛ أبو معشر ٤٨٠/١؛ ابن إسحاق ٤٨٠/١ وكذلك تاريخ خليفة ٨٨.
(٥) ابن عساكر ٣٥/١

يذكر قتلى من بطارقة الروم. انتهت المعركة بانتصار المسلمين، وعلى أثرها تقدَّم العرب إلى مدينة فحل «وكان أهلها قد تحصنوا فحاصرهم المسلمون ومن كان على دينهم من العرب المتنصرة»[1]، ثم استسلموا وقالوا إن الروم «قد غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا»، وهذا يظهر أن انتصار العرب الكبير كان له وقع كبير على أهل المنطقة، لدفعهم إلى تخليهم عن الروم، وإلى توجههم إلى العرب. ويقول البلاذري أنه باستسلام أهل فحل «أسلمت الأردن وجميع مدنه بما فيها بيسان، وسوسية، وأفيق، وجرش، والقدس والجولان»[2].

معركة مرج الصُّفَّر

بعد انتصار المسلمين في فحل وهيمنتهم على مدن الأردن توجهوا نحو دمشق التي كانت هدفهم الرئيس، ويُروى أن عمر بن الخطاب كتب إلى قواده «إبدأوا بدمشق، وانهدوا إليها، فإنها حصن الشام وبيت مملكتهم، واشغلوا عنكم أهل فحل بخيل تكون بإزائهم في نحورهم من أهل فلسطين وأهل حمص»[3] وكان المسلمون عشرين ألفاً[4].

وكان على الميمنة معاذ بن جبل، وعلى الميسرة هاشم بن عتبة، وعلى الفرسان سعيد بن عمرو بن نفيل وعلى المشاة أبو عبيدة.

وفي تقدُّمهم إلى دمشق اشتبكوا مع قوة رومية في مرج الصُّفَّر وهو سهل واسع يقع على بعد ٣٨ كيلومتراً جنوب دمشق، بين الكسوة وغباغب[5]، قرب الجابية، وشمال جبل حوران.

---

(١) فتوح البلدان ١١٤؛ الأزدي ١١١؛ ابن أعثم ١/ ١٨٠.

(٢) فتوح البلدان ١١٤.

(٣) تاريخ الإسلام للذهبي ٢/ ١٧٦؛ ابن عساكر ١/ ٥١٤.

(٤) ابن أعثم ١/ ١٣.

(٥) معجم البلدان ٤/ ٣٨٧٣؛ تاريخ أبي زرعة ١/ ١، وبنظر دوسو «طوبوغرافية سوريا» ٣٢٢ تعليق صلاح الدين المنجد في هامش ابن عساكر ١/ ٤٨٨، ولاة دمشق لابن طولون ٩١؛ ابن زرعة ١١٧؛ ابن عساكر ١/ ٤٧٨.

يذكر البلاذري أنه في وقعة مرج الصُفَّر جرح من المسلمين زهاء أربعة آلاف[1]، وقد يكون في هذا الرقم مبالغة، إلا أنه يشير إلى ضراوة المعركة وكثرة عدد من وقع فيها، خصوصاً وأن قرابة عشرين ألفاً شاركوا فيها.

ذكر ابن إسحق[2] وأبو مخنف[3] أن وقعة مرج الصُفَّر حدثت بعد عشرين ليلة من وقعة أجنادين، أي قبل موقعة فحل، وفي رواية أنها نشبت في أول المحرم[4] وذكر الأزدي وأبو مخنف وابن إسحق أن الموقعة حدثت بعد أجنادين بعشرين يوماً أي ١٨ جمادى الآخرة[5].

وبانتصار العرب في مرج الصُفَّر أصبح الطريق مفتوحاً إلى دمشق فحاصروها ودام حصارها أربعة أشهر، وكان على العرب يزيد بن أبي سفيان ومعه جند من أهل اليمن ذكر منهم بشر بن غزية وسهم بن المسافر بن هرمة وشافع بن عبد الله بن شافع، وبعث يزيد دحية بن خليفة الكلبي إلى تدمر، وأبا الزهراء القشيري إلى الثنية وحوران فصالحوا المسلمين[6].

(١) فتوح البلدان ١١٧

(٢) ابن عساكر ١/ ٤٨١

(٣) فتوح البلدان ١١٧.

(٤) فتوح البلدان ١١٧؛ ابن عساكر ١/ ٤٨١ عن ابن إسحاق والواقدي ١٠٨؛ اليعقوبي ٢/ ١١٩.

(٥) الأزدي ٨٣؛ ابن إسحاق في تاريخ خليفة ١٨٨؛ ابن عساكر ١/ ٤٨١؛ ابن أعثم ١٦١. ويضع الأزدي مرج الصُفَّر بين فحل وأجنادين، الأزدي ١٧٩

(٦) ابن عساكر ١/ ٥١٧

الفصل الرابع عشر

معركة اليرموك

قوات الروم

ارتاع هرقل مما أحرزه العرب من انتصارات متعددة كبيرة، على مناطق واسعة ومدن رئيسة، وخصوصاً بعد فقدانه عدداً كبيراً من القوات التي كان يعتمد عليها في الحفاظ على بلاد الشام وتعاطف أهل البلاد معهم وانحرافهم عن الروم؛ فقرر حشد جيش كبير يؤمن انتصاراً حاسماً على العرب. وأدرك عبث الاعتماد على العرب من أهل البلاد، باستثناء جبلة بن الأيهم والقوات التي استطاع جمعها من المستعربة من لخم وجذام وبلقين وعاملة وقضاعة وغسان، وهم من الأعراب الموالين للروم، وكان عددهم اثني عشر ألفاً وضعهم هرقل في المقدمة[1]؛ فيما اتخذ هرقل مقامه في أنطاكية[2].

اعتمد هرقل في حشد الجيش على مقدَّمة من أهل الجزيرة الفراتية، وأرمينية والقسطنطينية بالإضافة إلى ما تبقى له من قوات في بلاد الشام[3]. فيذكر ابن

---

(1) فتوح البلدان ١٣٤؛ ابن عساكر ١/ ٥٣١
(2) ابن عساكر ١/ ٥٣٨؛ فتوح البلدان ١٣٤.
(3) فتوح البلدان ١٣٤؛ ابن أعثم ١/ ٢٢٠؛ ابن عساكر ١/ ٥٣٢

عساكر أنه جاءه من روم قنسرين وأهل الجزيرة وغيرهم بشر كثير[1] وجاءه من أرمينية إثنا عشر ألفاً عليهم جرجس[2].

وقد ذكرت المصادر العربية أرقاماً متباينة عن عدد جيش الروم فذكر ابن الكلبي أنهم كانوا ثلاثمائة ألف[3]. وذكر الطبري أنهم كانوا ٢٤٠ ألفاً، وفي روايات أخرى أنهم كانوا ١٢٠ ألفاً من أرمينية[4]. وفي رواية أنهم ٨٠ ألفاً وفي رواية أن الرجالة كانوا ثمانين ألفاً، نصفهم مقترنون بالسلاسل، والخيالة ثمانون ألفاً[5]، يقرن كل عشرة سلسلة من حديد[6] ويروي ابن عساكر أنه تهافت في المعركة مائة وعشرون ألفاً منهم ثمانون ألفاً بالسلاسل[7]. وفي رواية أن المقيدين بالسلاسل أربعون ألفاً، وأربعون ألفاً مرتّطون بالعمائم[8]. ويقول البلاذري أنهم كانوا عشرين ألفاً من أرمينية والجزيرة[9] ومن الواضح أن في الأرقام الأولى مبالغة ظاهرة، إلا أنها تشير إلى كثرة عددهم، وهو أكثر من أيّ عدد حشدوه في معاركهم السابقة والتالية.

ووردت في أسماء القائد روايات متباينة، فذكر خليفة وابن أعثم أن القائد باهان، وهو رجل من أهل فارس تنصّر ولحق بالروم، ويقول ابن عساكر إنه أرمني[10]، ويقول ابن الكلبي إنه القائد السقلار[11] ويروي ابن عساكر أن

---

(١) ابن عساكر ١/٥٤١
(٢) ابن عساكر ١/٥٤١
(٣) تاريخ خليفة ١٠٠.
(٤) ابن عساكر ١/٥٣١
(٥) الطبري ١/٢١٨٨، ٢١٩٨؛ ابن عساكر ١/٥٤٩
(٦) ابن أعثم ٢/٢٦٠؛ ابن عساكر ١/٥٤٩
(٧) الطبري ١/٢٠٨١؛ ابن عساكر ١/٥٣٤
(٨) ابن عساكر ١/٤٤٩.
(٩) فتوح البلدان ١٣٢، ١٣٤.
(١٠) تاريخ خليفة ١٠٠؛ ابن أعثم ١/١٢٠؛ الذهبي ١/١٢، ويقول ابن عساكر إنه أرمني ١٣٢/٩.
(١١) الذهبي ١/٢ عن ابن الكلبي

القيادة لباهان والسقلار[1]. وهو لقب لصاحب الخزانة (سكلاريوس). ويذكر سيف أن القيادة العامة كانت لتذاريق، أخي الامبراطور، وعلى مقدمته جرجة، وأن على مجنّبتيه باهان والدرّاقص، وعلى الحرب الفيقار[2].

عدد القوات العربية

علم العرب باستعدادات الروم، وأدركوا خطورتها، فحشدوا قواتهم كافة، وجمعوها للاشتراك في المعركة، ووردت عن عدد المشاركين فيها عدة روايات. فروى سيف بن عمر أنه توافى إلى اليرموك مع الأمراء والجنود الأربعة سبعة وعشرون ألفاً، وثلاثة آلاف من فلال خالد بن سعيد أمر عليهم أبو بكر معاوية وشرحبيل، وعشرة آلاف من أمداد أهل العراق مع خالد بن الوليد، سوى ستة آلاف ثبتوا مع عكرمة رداً بعد خالد بن سعيد؛ وكانوا جميعاً ستة وأربعين ألفاً[3].

وذكر ابن أعثم أن المسلمين كانوا أربعين ألفاً[4]؛ وروى في مكان آخر أنه كان «المسلمون سبعة وعشرين ألفاً ممن كان مقيماً إلى أن قدم عليهم خالد في التسعة آلاف، فصاروا ستة وثلاثين ألفاً»[5]. وذكر الطبري أن قوات المسلمين ثلاثون ألفاً منهم ثلاث آلاف من بقايا جيش خالد بن سعيد، وستة آلاف ممن كانوا مع عكرمة، وعشرة آلاف ممن جازوا من العراق مع خالد بن الوليد[6]. وذكر أيضاً في مكان آخر أن جميع فِرَق المسلمين واحد وعشرون ألفاً سوى عكرمة من ستة آلاف[7]. وفي رواية أخرى للطبري أنهم كانوا ثمانية وعشرين

---

(١) ابن عساكر ١/٥٢٩.
(٢) الطبري ١/٢٠٨٧؛ ابن عساكر ١/٥٤٩.
(٣) الطبري ١/٢٠٩١.
(٤) ابن أعثم ١/١٤٧
(٥) ابن عساكر ١/٥٤٨.
(٦) الطبري ١/٢٠٩٠ ـ ١.
(٧) ابن عساكر ١/٥٤٨
(٨) الطبري ١/٢٠٨٧.

ألفاً[8] بمن فيهم جيش عكرمة.

وذكر البلاذري[1] أن عدد المسلمين كان أربعة وعشرين ألفاً. وذكر الوليد بن مسلم أن أبا بكر جهز الجيوش إلى الشام فاجتمع له أربعة وعشرون ألفاً من المهاجرين والأنصار ومسلحة الفتح وإمداد أهل اليمن والعالية[2]. ولم يدخل في هذا قوات خالد والإمدادات التالية، ولا عدد من قُتِلَ في المعارك الأولى.

ووردت عن عدد جيش خالد الذي شارك في معركة اليرموك عدة روايات. فذكر البلاذري أن جيش خالد بن الوليد الذي قَدِمَ به من العراق كان ثمانمائة رجل، ويقال ستمائة، ويقال خمسمائة[3]. وهذا العدد قليل يخالف روايات أخرى، ولا تؤيده إنجازات هذه القوات. فقد ذكر ابن زرعة أن جيش خالد الذي قَدِمَ الشام كان ثلاثة آلاف[4]. وذكر سيف بن عمر أن خالد بن الوليد فتح بصرى فيمن معه من جند العراق في تسعة آلاف[5]، وذكر في مكان آخر أن أصحاب هاشم بن عتبة الذي عاد من جيش خالد إلى العراق كانوا في عشرة آلاف، إلا من أصيب فيهم فأتموهم بأناس ممن لم يكن فيهم، وفيهم قيس والأشاعر[6]، ويذكر في مكان آخر أنهم كانوا ستة آلاف، خمسة آلاف من ربيعة، ومضر، وألف من أفناء اليمن والحجاز[7]. ويجدر بنا أن نذكر أن أهل العراق كوّنوا أربعة من الأربعين كردوساً من اليرموك.

ويذكر ابن أعثم أن أصحاب خالد الذين قَدِمَ بهم من الحجاز واليمامة كانوا سبعة آلاف[8].

---

(1) فتوح البلدان ١٣٤.
(2) ابن عساكر ١/ ٤٥٣
(3) فتوح البلدان ١٤٧
(4) تاريخ ابن زرعة ١٧٢؛ ابن عساكر ١/ ٤٩٨
(5) الطبري ١/ ٢١١٥
(6) الطبري ١/ ٢١٠٤؛ ابن عساكر ١/ ٥٥، ٥١٩.
(7) الطبري ١/ ٢٩٠٥.
(8) ابن أعثم ١/ ١٣٤.

ولا يبعد أن الذين ذكروا عدد المسلمين في اليرموك أربعة وعشرين ألفاً لم يُدخلوا في حسابهم القوة التي عادت إلى العراق ويذكر الطبري أن قتلى المسلمين في اليرموك بلغ ثلاثة آلاف.

والجدير بالذكر أن يونس بن ميسرة يذكر «نزل المسلمون الجابية وهم أربعة وعشرون ألفاً، وأن الطاعون أفنى منهم عشرين ألفاً وبقي أربعة آلاف»[1] والشطر الأول عن الخبر يؤيد أن «المسلمين، بمن فيهم جيش خالد، كانوا ثلاثين ألفاً.

غير أن هذه الأرقام لا تدخل في الحساب عدد القتلى في اليرموك وعددهم حوالى الثلاثة آلاف، ولعلّهم عوضوا بهجرات تالية. ولا ريب في أن هذه الأرقام هي عدد المقاتلة من الرجال، ولا يدخل فيها النساء والأطفال. وقد أشارت المصادر إلى تواجدهم ودورهم في اليرموك، كما أن كثيراً من المهاجرات قد حضرن يومئذٍ مع أزواجهن وأبنائهن[2]، وكان لهن دور ملحوظ في منع الرجال من الانهزام عندما يشد عليهم الروم[3].

تنظيم الجيش الإسلامي

في المصادر العربية عن تركيب وتنظيم الجيش الإسلامي الذي شارك في معركة اليرموك معلومات توازي في سعتها وتفاصيلها ما حدث عن معركة القادسية؛ وتنفرد بالإشارة إلى تنظيمات لم تذكر في القادسية. غير أنها لا تستوعب وصف كثير من التنظيمات والتنسيق بينها. فقد ذكرت أسماء كثير من العشائر دون أن تشير إلى عدد أفراد كل عشيرة. وذكرت عدداً من الأفراد

(١) ابن عساكر ١/٢٥٨.
(٢) ابن عساكر ١/٥٣٧
(٣) الطبري ١/١١٠٠؛ ابن أعثم ١/١٠٠، ١٤٥، ١٥٣.

البارزين، وهم على كثرة من ذكروا لا بد أنهم بعض، وليس كل المشاركين، ولعلها عكست في ذكرهم الأحوال التالية ومن صارت له مكانة ودور فيها، وأغفلت ذكر أسماء كان لأصحابها دور بارز في المعركة ثم تناقص دورهم في الأحداث التالية.

الكراديس

تردد ذكر الكراديس، وذكر التقسيم المشهور إلى ميمنة وميسرة وقلب، ومقدمة ومؤخرة ومجنّبات، كما تردد ذكر الرجالة والخيل، والأرباع. كما ذكرت الرايات والألوية، وذكرت الكراديس لأول مرة، ولم تذكر بعدها إلا في زمن مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين ولم يوضح العرب خصائصها وميزاتها وآثارها في تحقيق النصر، وسبب عدم أخذ العرب بها طوال الخلافة الأموية إلى زمن مروان. ولم يَرِدْ ذكر لأخذ العرب بها إلا في معركة القادسية

يروي سيف عن يزيد بن أسيد الغساني عن خالد وعبادة أنه في وقعة اليرموك «خرج خالد في تعبئة لم تُعَبِّها العرب قبل ذلك، فخرج في ستة وثلاثين كردوساً وقال. ليس من التعبية تعبية أكثر في رأي العين من الكراديس. فجعل القلب كراديس وأقام فيها أبا عبيدة، وجعل الميمنة كراديس وعليها عمرو بن العاص وفيها شرحبيل بن حسنة؛ وجعل الميسرة كراديس وعليها يزيد بن أبي سفيان.

وذكر أنه كان على كردوس من كراديس أهل العراق القعقاع بن عمرو، وعلى كردوس مذعور بن عديّ، وعياض بن غنم على كردوس، وهاشم بن عتبة على كردوس، وزياد بن حنظلة على كردوس، وخالد في كردوس، وعلى فالّة خالد بن سعيد دحية بن خليفة على كردوس، وامرؤ القيس على كردوس، ويزيد بن يحنّس على كردوس، وأبو عبيدة على كردوس، وعكرمة على كردوس، وسهيل على كردوس، وعبد الرحمن بن خالد على كردوس، وهو

يومئذٍ، ابن ثماني عشرة سنة، وحبيب بن مسلمة على كردوس، وصفوان بن أمية على كردوس، وسعيد بن خالد على كردوس، وأبو الأعور بن سفيان على كردوس وابن ذي الخمار على كردوس.

وفي الميمنة عمارة بن مُخشيّ بن خويلد على كردوس، وشرحبيل على كردوس، ومعه خالد بن سعيد، وعبد الله بن قيس على كردوس؛ وعمرو بن عبسة على كردوس، والسمط بن الأسود على كردوس، وذو الكلاع على كردوس، ومعاوية بن حُدَيْج على آخر، وجندب بن عمرو بن حُمَمة على كردوس، وعمرو بن فلان على كردوس، ولقيط بن عبد القيس بن بجرة، حليف لبني ظفر من بني فزارة على كردوس

وفي الميسرة يزيد بن أبي سفيان على كردوس، والزبير على كردوس وحَوْشب ذو ظُليم على كردوس، وقيس بن عمرو (مذول) حليف لبني النجار على كردوس، وعصمة بن عبد الله (حليف لبني النجار من بني أسد) على كردوس، وعتبة بن ربيعة بن بهز (حليف لبني عصمة) على كردوس، وجارية بن عبد الله الأشجعي، حليف لبني سلمة على كردوس، وقباث على كردوس.

وكان القاضي أبو الدرداء، وكان القاصّ أبو سفيان بن حرب، وكان على الطلائع قباث بن أشيَم، وكان على الأقباض عبد الله بن مسعود، وكان القارىء المقداد[1] وذكر الذهبي أن سهيل بن عمرو كان على كردوس[2]، وأن صفوان بن أمية كان على كردوس»[3].

لم ينص الطبري على كراديس القلب، والراجح أنهم أو بضمنهم كراديس أهل العراق، وهي الثمانية عشر الأولى، وسقطت منها كلمة القلب خطأ من النساخ. أما كراديس كلٌ من الميمنة والميسرة فكانت عشرة.

---

(1) الطبري ١/٢٠٩٢ ـ ٩٥ ابن عساكر ١/٥٢٤.
(2) تاريخ الإسلام للذهبي ٢/١٥.
(3) سير أعلام النبلاء ٢/٥٦٣.

اقتصر الطبري على ذكر رؤساء الكراديس، ولم يُشِر إلى عشائر كل كردوس أو إلى عدد رجاله.

ولم يذكر الانتماءات القبلية لعدد من رؤساء الكراديس، ولعل كل كردوس كان يبلغ حوالي ألف مقاتل لأن المقاتلة المسلمين كانوا يزيدون على الثلاثين ألفاً غير أن مصادر أخرى أشارت إلى عدد من العشائر ومكانها

كانت كلٌ من كراديس الميمنة والميسرة تضم عشائر متعددة، كما أن كثيراً من العشائر وبخاصة اليمانية والمكية والحجارية، موزعة على كراديس في الميمنة والميسرة والقلب، ومن قريش، و ليس.

وفي الميمنة خليط من قريش (١)، والحجاز (٢)، وهمدان (١)، وكندة (٢)، وحمير (١)، ودوس (١) وقضاعة (١).

وفي الميسرة من رؤساء الكراديس: قريش (٢)، والأنصار (٣)، وليث (١)، وأشجع (١)، وأسد (١)، وعك (١)، وحمير (١).

وينتمي رؤساء الكراديس الذين ذكرهم سيف إلى عشائر متعددة، كثير منهم من عشائر مكة، فمن بني أمية خالد بن سعيد، وسعيد بن خالد ويزيد بن أبي سفيان، ومن مخزوم عبد الرحمن بن خالد وعكرمة بن أبي جهل ومن جمح صفوان بن أمية، ومن زهرة هاشم بن عتبة، ومن سهم عمرو بن العاص، ومن فهر أبو عبيدة بن الجراح وعياض بن غنم

وليس في رؤساء الكراديس أنصار، وربما فيهم أربعة من حلفائهم: جارية بن عبد الله الأشجعي حليف سلمة وعتبة بن ربيعة حليف العصمة، وقيس بن عمرو حليف النجار، ولقيط بن عبد القيس الفزاري حليف ظفر.

ومن عشائر الحجاز أبو الأعور وعمرو بن عتبة (من سليم)، وضرار بن الأزور (من أسد بن خزيمة)، ومن ضبة عصمة بن عبد الله ودحية بن خليفة (كلب) أما عشائر اليمن فمنهم السمط بن الأسود، ومعاوية بن حديج (من

كندة) وحوشب ذو ظليم، وابن ذي الخمار (من حمير) ولم تُحقق هوية امرىء القيس، وعبد الله بن قيس، وقباث بن مخشي بن خويلد، ويزيد بن يحنس. إن هذا الجرد يظهر أن أكثر رؤساء الكراديس هم من قريش، ومن حلفاء الأنصار، ومن أهل الحجاز ثم من حمير وكندة وهي تتطابق مع الإشارات الأخرى للعشائر التي شاركت في اليرموك والتي ذكرتها بعض المصادر.

ذكرت المصادر عدداً من البارزين الذين شاركوا في معركة اليرموك، ولم يذكروا من أصحاب الكراديس، فذكر البلاذري منهم عبد الله بن الزبير بن عبد الملك، وعمرو بن سعيد بن العاص، وطليب بن عمير بن وهب، وجندب بن عمرو الدَّوسي، وسعيد والحارث والحجاج أولاد الحارث (سهم) والحارث بن هشام بن المغيرة[1].

وذكر ابن عساكر عبد الله بن قرط (ثمالة الأزد، وشريك بن عبد الرحمن، وسفيان بن عوف الغامدي (الأزد)، والحارث بن هشام، وعلقمة)[2]

وذكر الذهبي في «سير أعلام النبلاء» كلاً من (١) قيس بن مكشوح، (٢) الأشعث، (٣) زيد بن ثابت، (٤) عمير بن سلبط، (٥) الأشتر، (٦)، سويد بن غفلة الجعفي، (٧) وأبو عثمان النهري[3]

كانت الكراديس تقسيمات فرعية لأخرى أعلى منها وأشمل؛ هي الأرباع والقلب والميمنة والميسرة؛ ولم يذكر سيف كراديس للطليعة أو المؤخرة.

ذكرت المصادر معلومات عن قواد الميمنة والميسرة والقلب فذكر سيف أن أبا عبيدة، كان في القلب، وعمرو بن العاص في الميمنة ويزيد بن أبي سفيان في الميسرة، وذكر ابن أعثم أن يزيد بن أبي سفيان كان على الميمنة، وقيس بن هبيرة المرادي على الميسرة[4] وروى ابن عساكر عن قدماء من أهل الشام أن

(١) فتوح البلدان ١٣٦.
(٢) انظر: ٣٤٠، ٤١٦، ٤٢٠، ٤٢٤، ٥٥٤، ٥٤٦.
(٣) انظر: ٢/ ٥٢٠، ٢٤٦، ٤٢٧، ٢٢٠، ٤/ ٣٤، ٦٩، ١٣٦
(٤) ابن أعثم ١/ ٢٥٤.

شرحبيل كان في وسط من الناس إلى جنب سعيد بن زيد، وأن قيس بن هبيرة كان في الميسرة[1]. وذكر الطبري أن عكرمة والقعقاع كانا على مجنّبتي القلب[2]. وذكر ابن سعد أن قباث بن أشيم (كنانة) كان على مجنّبة أبي عبيدة يوم اليرموك[3].

ومما يتصل بهذا رواية سعيد بن عبد العزيز عن قدماء أهل الشام وغيرهم أن الروم عندما زحفوا على المسلمين «خرج أبو عبيدة وقد جعل على ميمنته معاذ بن جبل[4]، وعلى ميسرته قباث بن أسامة الكناني، وعلى الرجالة هاشم بن عتبة بن أبي وقاص[5]، وعلى الخيل خالد بن الوليد[6]. وذكر سيف بن عمر أن العرب عند أول اجتماعهم في اليرموك كان عليهم عمرو بن العاص وعلقمة، ويزيد بن أبي سفيان، وأبو عبيدة بن الجراح، وشرحبيل بن حسنة، بالإضافة إلى فلّال خالد بن سعيد وعليهم معاوية وشرحبيل، وأمداد أهل العراق مع خالد بن الوليد، وستة آلاف ثبتوا مع خالد. وذكر «كان قتالهم على تساند، كل جند وأميره، لا يجمعهم أحد، حتى قَدِمَ عليه خالد بن الوليد، وكان عسكر أبي عبيدة باليرموك مجاوراً لعسكر عمرو بن العاص، وعسكر شرحبيل مجاوراً لعسكر يزيد بن أبي سفيان»[7]

ويذكر ابن أعثم أن أبا عبيدة حصن النساء بالتل «وأقبل يعبؤهم». وقد ابتدأ المسلمون القتال بعد أن عبأهم ميمنة وميسرة وقلباً وجناحين[8]. وذكر أن أبا عبيدة «جعل العسكر ثلاثة صفوف: صفٌّ فيه الرماة، وصفٌّ فيه أصحاب

---

(1) ابن عساكر ١/٥٤٢، ٥٤٣.
(2) الطبري ١/٢٠٩٦.
(3) ابن عساكر ١/٥٤٠، ٤٩٠ (قباث على الميسرة)
(4) ابن عساكر ١/٥٣٥.
(5) ابن عساكر ١/٥٣٥، ٥٣٧، ٥٤٠.
(6) ابن عساكر ١/٥٢٦
(7) ابن عساكر ١/٤٣٥.
(8) ابن أعثم ١/٢٥٤ ـ ٢٥٥.

السيوف والجحف، وصفٌ فيه الرماح والخيل والعدة وقسم الخيالة ثلاثة صفوف، وقدَّم عليهم ثلاثة من فرسان المسلمين أحدهم قباث بن حرملة العامري، والآخر نبلة بن سيف اليربوعي، والثالث القعقاع بن عمرو التميمي. وكان على الدارجة شرحبيل بن حسنة، وعلى الميمنة يزيد بن أبي سفيان، وعلى جناح الميسرة قيس بن هبيرة المرادي[1].

وذكر ابن عساكر أن خالداً قسم خيله قسمين، رأس أحدهما وجعل قيس بن هبيرة على القسم الآخر، وكان في القلب سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وإلى جنبه شرحبيل بن حسنة في ربعه[2]، أما أبو عبيدة فكان وراء سعيد بن زيد ردءًا له وللمسلمين[3].

لم يَرِدْ في وصف سيف الكراديس ذكر الجناحين، وأصناف السلاح، وبخاصة الخيالة، والأرباع والدارجة. ولا بد أن تطور مجرى المعركة تطلّب تعديلاً في التنظيمات التي لم تكن شاملة وعم صحتها.

وورد في الأخبار ذكر الرايات، فذكر ابن أعثم أن أبا عبيدة في أول المعركة «قدم أصحاب الرايات، وكانت راية المهاجرين صفراء وفيها بياض وخضرة وسواد وسائر القبائل راياتهم مختلفة الألوان» و«وقف أبو عبيدة في القلب تحت رايته، وكان خالد بن الوليد تحت رايته العقاب وكانت سوداء»[4].

لم يَرِدْ في أخبار معركة اليرموك ذكر للألوية التي كان استعمالها معروفاً عند العرب قبل اليرموك، فيذكر البلاذري أن «أبا بكر أمر الأمراء أن يعقدوا لكل قبيلة لواء يكرمهم[5]، فكان للمشركين في أُحُد لواء قتل عليه سبعة[6]، وكان

(١) ابن أعثم ٢٥٨.
(٢) ابن عساكر ١/ ٥٤٢.
(٣) ابن عساكر ١/ ٥٤٣.
(٤) ابن أعثم ١/ ٢٥٤.
(٥) فتوح البلدان ١٠٧.
(٦) ابن حنبل ١/ ٢٨٨.

للرسول (ص) يوم دخل مكة لواء أبيض[1] يحمله قيس بن سعد[2]. وفي وقعة صفين عقد معاوية ألوية القبائل وأعطاها قوماً منهم بأعيانهم، جعلهم رؤساء وحمل لواءه لعبد الرحمن بن خالد بن الوليد[3]. كما أن علياً عقد الألوية، وأمّر الأمراء[4].

أما الرايات فقد تردد ذكرها في وقعة صفين، وكانت رايات أهل العراق سوداء وحمراء ودكناء وبيضاء ومصفّرة ومورّدة، والألوية مضروبة دكناء وسوداء[5].

قدم الرواة والمؤرخون معلومات واسعة، فيها كثير من التعارض والتناقض، عن تنظيمات الجيش الإسلامي في معركة اليرموك، وعدد من المسهمين فيها، مقتصرين في كثير منهم على ذكر أسمائهم دون نسبتهم القبلية، ولم يقدموا معلومات شاملة عن أسماء العشائر كافة المسهمة فيها. ومن المعلومات القليلة التي قدّموها في هذا النطاق ما ذكره الطبري أنه شهد اليرموك ألف من أصحاب رسول الله (ص) فيهم نحو من مائة من أهل بدر[6]. وذكر ابن أعثم في يوم كانت الأزد في القلب، وحمير وهمدان ومذحج وخولان وخثعم وكنانة وقضاعة ولخم وجذام في الميسرة، ولم يكن فيهم تميم ولا ربيعة لأنهم كانوا في العراق مع سعد بن أبي وقاص[7].

وذكر أن ميمنة المسلمين كان فيها الأزد ومذحج وحضرموت وزبيد الذين كان عليهم الحجاج بن عبد يغوث، وهم خمسمائة رجل وأنهم حملوا على الروم وحملت معهم حمير وحضرموت وخولان. وذكر ابن عساكر «خرج الناس

---

(١) انظر فصول الجهاد في ابن ماجة ١٦٤، النسائي ١٦٩، الترمذي ٩/٩
(٢) البخاري، الجهاد ٢٢١.
(٣) وقعة صفين لنصر بن مزاحم ٢٨٨
(٤) كذلك ٢١٦.
(٥) كذلك ٣٣٢.
(٦) الطبري ١/١/٢١٩٥
(٧) ابن أعثم ١/٢٥٤ ـ ٣.

على راياتهم وفيها أشراف رجال من العرب فيها الأزد، وهم ثلث الناس، وفيها حمير وهمدان ومذحج وخولان وخثعم، وفيها كنانة وقضاعة ولخم وجذام وكندة وحضرموت، وليس فيها أسد ولا تميم، ولا ربيعة، ولم تكن دارهم، إنما كانت دارهم عراقية[1]. وذكر أيضاً أن ميمنة المسلمين كان فيها الأزد ومذحج وحضرموت وحمير وخولان وزبيد أيضاً، وهم خمسمائة رجل[2]، وكانت كنانة وقيس وخثعم وجذام وقضاعة وعاملة وعشائر فيما بين ميسرة المسلمين إلى القلب[3] وفي القلب سعيد بن زيد بن عمرو بن قيس ووراءه أبو عبيدة وإلى جنبه شرحبيل بن حسنة.

ميدان المعركة

تابع هرقل سياسته التي اتَّبعها في المعارك التي خاضها جيش الروم باختياره تحشيد جنده في أرض متموجة تتيسر فيها حركة الرجالة والخيالة، وتتوافر فيها المياه، وتكون في مؤخرة جيش خصمه ليجبره على الانسحاب، ويختار لجنده المواقع المسيطرة التي تساعد على انتصاره، وهو يختار المناطق العراء. وكان هذا ما فعله في أجنادين وفحل واليرموك، وهو بهذا الاختيار يفاجىء خصمه ويدفعه إلى تفريق قواته وتوزيعها على مناطق متعددة دون أن يكون واثقاً من المكان الذي سيجري فيه القتال؛ ولم يكن يعتمد على اختيار المدن لمقاتلة خصمه. والواقع أن المعارك الأولى كلها التي خاضها العرب ضد الروم، لم تكن في المدن إلا بعد انهيار جيش الروم في اليرموك.

اختار هرقل لتحشيد قواته في المعركة التي اعتزم أن تكون حاسمة سهلاً جنوبي بصرى في الغور، وكان في غرب هذا المكان بحيرة طبرية التي يخرج من جنوبها نهر الأردن ويصبُّ في البحر الميت. ويخترق ميدان المعركة نهر

(١) ابن عساكر ١/٥٣٥.
(٢) ابن عساكر ١/٣٩.
(٣) ابن عساكر ١/٥٣٥، ٥٣٧، ٥١٩، وانظر أحمد كمال عادل ٤٨٢

اليرموك الذي يجري من الشرق ويصبُّ في نهر الأردن. وفي الجهات الغربية من هذه المنطقة يقع مجرى الواقوصة والرقادة. وهو يجري من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي مكوِّناً منحدرات عميقة ويلتقي حيث حَشْد الرجالة المسلسلين للصمود بوجه أيِّ محاولة للالتفاف. وكان قلب قواته من الخيالة في نَشْزٍ مرتفع من الأرض، تسنده من العرب الواقوصة والرقادة، وجناحهم الأيسر وظهرهم مكشوف لفضاء ييسِّر حركة الخيالة وإمدادهم أو انسحابهم[1]

علم العرب باستعدادات الروم، وقدَّروا خطورتها، وأدركوا أن المعركة القادمة ستكون حاسمة؛ فكتبوا إلى الخليفة بقوة الروم وتقدُّمهم؛ وسحبوا قواتهم كافة، فأخلوا البلاد التي كانوا قد توغلوا فيها شمالاً من حمص ودمشق، ولا بد أنهم جمعوا ما كان لهم من قوات في فلسطين والأردن، وتجمعوا في الجابية، بين الرقادة ومرج الحولان[2]

نشب القتال يوم الاثنين الخامس من رجب سنة ١٥[3] وحشد المسلمون قواتهم جنوب اليرموك وبدأ الروم القتال برشقهم المسلمين بالنبال تلاه هجوم ميسرتهم على ميمنة القوات الإسلامية، وأكثرهم من لخم وجذام والأزد، وعليهم عمرو بن العاص وشرحبيل، وأفلحوا في ضعضعتها، ولكنهم لم يشتتوها، إذ أنجدتهم قوات من القلب، فأسهمت في صد هجوم الروم[4]؛ وقام النساء بدور في إيقاف التراجع[5]

وفي اليوم الثاني من القتال تابعت ميسرة الروم مهاجمة قوات ميمنة

(١) من أشمل الدراسات الحديثة ما قام به أحمد كمال عادل في كتابه وعيه معتمدنا في عرضنا الموجز لمجريات حوادث المعركة ودراسة أحمد سويدان في كتابه جديرة بالتقدير

(٢) ابن أعثم ١/ ١٣٢؛ ابن عساكر ١/ ٥٣٢.

(٣) تاريخ خليفة ١٠٠؛ فتوح البلدان ١٣٦ (عن ابن الكلبي)؛ الطبري ١/ ١٥٥، ١٧٣؛ ابن أعثم ٢٦٠؛ تاريخ الإسلام للذهبي ٢/ ١٠. ويذكر سيف أن المعركة نشبت في جمادى الآخرة من سنة ١٣ (الطبري ١/ ٢٠٩١).

(٤) مختصر تاريخ ابن عساكر ٤/ ٥٢

المسلمين، ونشب قتال ضارٍ صمد فيه المسلمون، وقتل القبقلار قائد الروم، وقام الرماة الأرمن بدور في القتال، وصمد أصحاب السلاسل.

وفي اليوم الثالث قامت خيالة المسلمين في القلب، وعليهم خالد بن الوليد بهجوم نشب فيه قتال حامٍ استطاع خالد أن يدحر خيالة الروم بعد قتال ضارٍ، وتشتت خيالة الروم، وداس بعضها المشاة المسلسلون، فوقعت فيهم خسائر كبيرة، من قتلى أو غرقى في الرقادة، وقل من استطاع منهم الهرب؛ وكان النصر تاماً للعرب، ولم يبقَ في الميدان غير جثث القتلى. وبذلك انهار جيش الروم؛ ولما سمع هرقل بالهزيمة انتقل إلى أنطاكية، وأصبح الطريق أمام القوات العربية مفتوحاً للتقدم إلى دمشق ثم إلى شمال بلاد الشام.



الفصل الخامس عشر

فتح دمشق وشمالي بلاد الشام

دمشق وأهميتها

دمشق من أكبر المدن العربية وأقدمها في المنطقة، تقع في أرض مستوية تحيطها الجبال والمرتفعات من جوانبها الشرقية والغربية، ويتصل بأطرافها الشرقية سهل الغوطة المتصل بالبادية، وتتوافر فيه المياه التي تروي المزارع وأشجار الفاكهة والخضر، ويخترقها نهر بردى وفروعه التي توفر الماء للسكان والمزارع.

ودمشق من أكبر مراكز الصناعة والتجارة في المنطقة، فهي مركز لكثير من المنتوجات الصناعية من النسيج والأسلحة والصناعات الخشبية، فضلاً عن أنها كانت من أكبر المراكز الحضرية والفكرية؛ وهي ملتقى الطرق التجارية بين مدن شمال وجنوب بلاد الشام، وبينها وبين بعلبك وسهل البقاع وموانىء أواسط الساحل الشرقي من البحر المتوسط بما فيها بيروت والمدن الساحلية الأخرى.

وكان يحيطها سور حصين، عرضه عشرون قدماً وارتفاعه خمسة أمتار، مبني بالحجارة المربعة، وفيه شرفات وأبراج بارزة مربعة بين الواحد والآخر منها خمسون قدماً، عليها أبنية ومساكن للحراس، ويحيط السور خندق عرضه بين عشرة أقدام وخمسة عشر قدماً.

وللسور سبعة مداخل عليها أبواب ثقيلة مصفحة بالحديد، أكبرها الباب الشرقي الذي يقود إلى هيكل روماني قديم، وفي الجانب الغربي باب الجابية، وفي الجنوب باب كيسان، وهناك أيضاً باب توما، وباب الفراديس. وفي وسط دمشق ساحة واسعة يسميها العرب المقسلاط[(١)].

هاجم العرب دمشق وأخضعوها ثلاث مرات، وكان هذا سبب بعض الإرباك والخلط عن أخبار فتحها. ومن المؤكد أن أول هجوم عليها قام به خالد بن الوليد في طريق قدومه من العراق، فوجّه بعد اجتيازه مرج راهط بسر بن أبي أرطاة وحبيب بن مسلمة فأغارا على بعض قراها. وتقدّم بقواته إلى الباب الشرقي، ويقال بأنه نزل باب الجابية، ولم يحاصر دمشق وإنما تابع سيره إلى بصرى حيث اجتمع مع القوات الإسلامية العاملة في بلاد الشام[(٢)].

ولما دحر العرب الروم في معركة أجنادين وهل تابعوا تقدُّمهم فدخلوا دمشق، وأرسلوا قوة دخلت حمص، وكانت للروم قوات في شمالي بلاد الشام، فعمل هرقل على استخدامها لإقصاء العرب عما ظفروا به من البلاد، ودفع قوات بقيادة أخيه تيودور، ويسميه العرب تذارق، تدّعي المصادر أنها تبلغ تسعين ألفاً نحو ثنية جلق، ووجّه جرجة ابن تيودور بقوة مقابل يزيد بن أبي سفيان، والداقش نحو شرحبيل، والقيقلان بن نسطورس، نحو أبي عبيدة[(٣)]. ويروي الأزدي أن هرقل أرسل إلى دمشق نحو خمسة آلاف من أهل القوة والشدة من أهل دمشق وجمعاً كبيراً من أهل حمص، فباتت قوّتهم أكثر من عشرة آلاف تصدت لها القوات الإسلامية، وكان خالد بن الوليد في الميمنة، ومعاذ بن جبل وهاشم بن عتبة في الميسرة، وعلى الخيل سعيد بن زيد بن

---

(١) فتوح البلدان ١١٢، ١٢٥، وانظر في وصف دمشق كتابي سوفاجيه، وصلاح المنجد، وبقي سور دمشق قائماً إلى أن هدمه عبد الله بن علي أول ولاة بني العباس على دمشق. (فتوح البلدان ١٢٥).

(٢) فتوح البلدان ١٠٩، ١٢٠؛ معجم البلدان ٤٣١/١.

(٣) الطبري ٢٠٨٧/١؛ ابن عساكر ٥٣٢/١.

عمرو بن نفيل، وعلى الرجالة أبو عبيدة، فهاجمتهم أجنحة المسلمين وقتلت منهم نحو خمسمائة وأسرت مثل هذا العدد فخلت دمشق ممن يدافع عنها، وعقد أهلها مع المسلمين صلحاً[1]، وأنفذ أبو عبيدة قوة إلى حمص، فطلب أهلها الصلح على ما يؤدونه.

وقام هرقل بتجهيز قوة كبيرة سلكت سهل البقاع وتقدّمت إلى اليرموك فأحسّ العرب بخطر تطويقهم، وسحبوا قواتهم من حمص وأخلوا دمشق، وجمعوا قواتهم استعداداً لمعركة اليرموك الكبرى

ولما أحرز العرب انتصارهم الساحق في اليرموك تابعوا تقدُّمهم إلى دمشق وكان حاكمها توماس زوج ابنة هرقل، وقائد الحامية أثادير[2]

يروي ابن أعثم أن القوات الإسلامية التي حاصرت دمشق وفتحتها كانت سبعة وثلاثين ألفاً، وأنه كان مع عمرو بن العاص أربعة آلاف ومع معاوية بن حديج ثلاثة آلاف[3]، وهذه أرقام فيها مبالغة.

لم تكن لهرقل قوات تستطيع صدّ المسلمين، فاعتمد في الدفاع عنها على أسوارها، فالقوات الإسلامية من رجالة وخيالة كانت مدربة على القتال البري في الأراضي المكشوفة، ولم تكن مدربة على القتال من خلف الأسوار، كما لم تكن لديها المعدات اللازمة لهدمها والتغلب عليها.

توزعت القوات الإسلامية في حصار دمشق على أبواب أسوارها، فكان أبو عبيدة مع قواته على باب الجابية، وخالد بن الوليد على باب الشرقي الصغير ويزيد بن أبي سفيان على باب توما، وشرحبيل بن حسنة على باب الفراديس. وبعد حصار دام أكثر من أربعة أشهر استطاعوا تسلُّق السور وفتح خالد بن

---

(1) تاريخ الأزدي ١٨٣ ـ ٨٤.

(2) يقول ابن إسحاق إن قائد الحامية كان باهان، الطبري ١/ ٢١٤٢؛ ابن عساكر ١/ ٤٨٥؛ تاريخ الإسلام للذهبي ٢/ ٢.

(3) فتوح البلدان ١٢٢، ١٢٣؛ الأموال لأبي عبيد ١٧٧؛ تاريخ اليعقوبي ٢/ ١٥٦؛ ابن أعثم ١/ ١٣٩؛ ابن عساكر ١/ ٥١٢ ويذكر البلاذري أن عمرو بن العاص كان على باب توما

الوليد وأبو عبيدة أبوابها، وتغلبوا على المدافعين عنها[1]، والتقت قواتهما في المقسلاط عند موضع النحّاسين[2]، واستسلمت القوات المدافعة عنها، وهيمن العرب عليها وأثار استسلام دمشق نقاشاً عند الفقهاء. فذكر بعضهم، ومنهم ابن سلام، أن أهل دمشق صولحوا، وارتأى آخرون أنها فتحت عنوة[3]. وفي أي حال فإن استسلام دمشق اعتبر صلحاً.

أمّن ضم العرب دمشق لدولتهم قاعدة اقتصادية حضارية وفكرية متميزة الأهمية. وقد أضعف اندحار الروم قدراتهم العسكرية، ولكنه لم يجتثها، فبقيت لهم قوات تهدد استقرار حكم العرب في دمشق، وأدرك أبو عبيدة ذلك فلم يتوانَ عن العمل على إزالة مصادر أي خطر من الروم؛ فخلف في دمشق سويد بن كلثوم بن قيس القرشي مع جماعة من بني محارب بن فهر من خمسمائة رجل[4]. ويذكر ابن عساكر «أن يزيد بن أبي سفيان بقي معه في دمشق عدد من قواد أهل اليمن منهم أعثم بن بشر بن غرية وعامر بن هرمة ومشافع بن عبد الله بن مشافع»[5]. ولم يذكر ابن عساكر عدد القوات العربية التي بقيت في دمشق. وتدل إشارته إلى أن من ذكرهم من قواد أهل اليمن أن أكثر الباقين في دمشق كانوا من أهل اليمن.

فتح بعلبك

كان أول ما فعله العرب بعد فتح دمشق ضم بعلبك إلى دولة الإسلام، فإن هذه المدينة هي أهم قاعدة في وادي البقاع، وكان الروم يرسلون قواتهم من طريقها لإقصاء العرب وقطع خط الرجعة عليهم.

---

(1) الطبري ١/٢١٤٦، ٢١٥٠؛ تاريخ خليفة ٩٤
(2) فتوح البلدان ١٣، ١٤١.
(3) الأموال لأبي عبيد، ١٥، ١٧٧؛ ابن عساكر ١/٥٢٠، ٥٣٧ ويروي الكلبي أن خالداً دخلها صلحاً. تاريخ خليفة ١٩٤.
(4) تاريخ الأزدي ١٤٨
(5) ابن عساكر ١/٥١٧؛ وانظر: الطريق إلى دمشق لأحمد عادل كمال ١٩١

يروي الأزدي أن أبا عبيدة خرج من دمشق إلى بعلبك، فَقَدِمَ خالد عليهم فصاروا ألفاً وخمسمائة[1] ويذكر أن خالداً حاصر بعلبك وأرسل نحو خمسين كان منهم ملحان بن زياد الطائي وبنان بن حازم القيسي ودحية الكلبي»[2]

انتهى حصار بعلبك بصلح وقَّعه أبو عبيدة وفيه أن أبا عبيدة أمن أهل بعلبك «رومها وفرسها وعربها، على أموالهم وأنفسهم ودورهم داخل المدينة وخارجها» وأباح للروم البقاء بضعة أشهر يغادرون بعدها إلى حيث شاؤوا وأن لتجارهم أن يسافروا إلى حيث شاؤوا من بلاد الدولة الإسلامية[3]. وهذه الأمور تشير إلى السمة السكانية لأهل بعلبك المكوّنين من عرب، وفرس، وروم، وأنه لم يقصِ منها إلا الروم.

فتح حمص

كانت حمص من أكبر المدن في شمالي بلاد الشام. وكثيراً ما كان هرقل ينزلها ويقيم فيها وقد فتحها العرب مرتين، أولاهما قبل معركة اليرموك. فلما أرسل هرقل قواته إلى اليرموك لإجبار العرب على الانسحاب من بلاد الشام، وأدرك العرب خطر محاولة هرقل، انسحبوا مما سيطروا عليه وعملوا على جمع قواتهم لمقابلة قوات هرقل؛ وأعاد العرب لأهل حمص ما كانوا قد جبوه منهم.

وبعد أن انتصر العرب في اليرموك، وفتحوا دمشق وبعلبك لم يتأخروا في إنفاذ قواتهم لفتح حمص؛ وفي المصادر معلومات واسعة متفرقة عن فتح حمص؛ وليس واضحاً في كثير منها ما يتصل بالفتح الأول أو الفتح الثاني النهائي. والراجح أن أكثر التفاصيل التي ذكرتها المصادر تتعلق بالفتح الثاني.

يروي ابن عساكر أنه بعد فتح دمشق كتب الخليفة عمر إلى أبي عبيدة

---

(1) تاريخ الأزدي ١٤٨.

(2) تاريخ الأزدي ١٤٤؛ وانظر: أحمد عادل كمال ٣٨/٩.

(3) فتوح البلدان ١٢٩ ـ ١٣٠؛ وانظر الوثائق السياسية ١٥٣ لمحمد حميد الله

قائلاً: «انطلق أنت وخالد إلى حمص، ودع شرحبيل وعمرو.. بالأردن»[1].
ويقول البلاذري إن العرب بعد استيلائهم على بعلبك تقدموا منها إلى حمص من طريق وادي البقاع ودحروا قوات الروم[2].

أبدى أهل حمص مقاومة في جوسية؛ ويذكر الأزدي أن خالد بن الوليد قاتل أهل حمص في جوسية «معه ميسرة بن مسروق العبسي ورجل من حمير اسمه جبل». وكان من رجال جيشه ملحان بن زياد الطائي، وعبد الله بن قرظ، وصفوان بن المعطل، كل منهم صاحب رأيه، وقد انتهى إلى حمص أول يوم حاصرها المسلمون تسع رايات، كانت لطي منها رايتان، وكانوا في المقدمة من فرسان خالد وكانت أول راية دخلت حمص ودارت حول مدينتها راية ميسرة بن مسروق العبسي. وكانت لأبي أمامة راية، ولأبي محرز راية. وكان من قوات العرب فارس من آل ذي الكلاع؛ وبعث خالد لمطاردة الحمصيين ميسرة بن مسروق العبسي، ورجل من حمير اسمه شرحبيل[3].

ويروى «قال عبد الله بن قرظ دفع إليَّ عمر هذا الكتاب وقال إذا قَدِمْتَ على المسلمين فسِرْ في صفوفهم، وقِفْ على أهل كل راية منهم». وكان معاذ في الميمنة، وقباث بن أشيم في الميسرة، وكانت فيها كنانة وقيس[4].

ويذكر الأزدي «كان أبو بكر بعث سعيد بن عامر على سبعمائة رجل، فيهم بلال بن أبي رباح وعبد الله بن قرظ»[5]. ولا بد أن هذه القوة شاركت في فتح حمص الأول، ولعلها شاركت في الفتح الثاني. ويروي البلاذري أن السمط الكندي فتح حمص وقسَّم على أهلها المنازل[6] وقد يدل هذا على أن السمط أسند إليه عمل إداري وتنظيمي بعد فتحها.

(١) ابن عساكر ١/ ٥١٤.
(٢) فتوح البلدان ص١٣٧.
(٣) الأزدي ١/ ١٤٤؛ وانظر أحمد عادل كمال ٣٣٢، ٣٩٣.
(٤) أحمد عادل كمال ٤٢٧، ٤٣٣.
(٥) تاريخ خليفة ٩٩ عن ابن إسحاق، ويذكر أن الفتح كان سنة ١٨؛ ابن سعد ٣ ـ ٨/ ١٩٥؛ تاريخ الأزدي ١٨٥.
(٦) فتوح البلدان ٢٢٩.

وذكر ابن عساكر أن هرقل أرسل قوة لصدّ المسلمين عن حمص، وكان في هذه القوة على الميمنة قناطير صاحب أرمينيا[1]، والزمنجار صاحب الميسرة[2]. وعلى المقدمة جرجة، وعلى المجنّبتين باهان والدراقص. وأن باهان قتل بالجولان[3]، وانضم جرجة إلى المسلمين[4]، ويذكر الطبري أن تذارق أخا هرقل قُتِل[5]. ويرى الجنرال أكرم أن «هرقل أرسل قناطير إلى طريق بيروت، وجرجة إلى شمال شرقي حمص، وبرجان إلى ساحل حلب وحمص، وجبلة بين حلب وحمص، والروم بقيادة وردان حاكم حمص يعاونه القبقلار»[6].

ويقول دونر تقدم أبو عبيدة إلى حمص وبشير بن كعب، وذو الكلاع بين دمشق وحمص؛ وأن هرقل أرسل تودرا البطريق وشناس الرومي، وقوة مع تيودور، فطاردها خالد ولما اندحر الروم وقتل تيودور، وانسحب هرقل إلى الرها؛ تقدّم أبو عبيدة وخالد إلى حمص ودخلوها وأخضعوا ما حولها[7]

(١) الطبري ١/ ٢٥٩٤.
(٢) ابن عساكر ٥٣٩.
(٣) ابن عساكر ١/ ٥٣٤.
(٤) الطبري ١/ ٢٠٩٧؛ ابن عساكر ١/ ٥٤٩
(٥) الطبري ١/ ٢٥٣٤.
(٦) خالد بن الوليد للجنرال أكرم.
(٧) دونر، الفتوح الإسلامية ١٣٧.



الفصل السادس عشر

إكمال فتح بلاد الشام

كان فتح دمشق حدثاً بالغ الأهمية للعرب، نظراً لِسَعَة المدينة وأهميتها الحضارية والعسكرية، وقد تم الفتح بعد التغلب على مقاومة حاميتها ولم تصلها خلال الحصار نجدة من هرقل لأنه لم تعد عنده قوات كافية لفكّ الحصار عنها.

غير أن فتح دمشق لا يكفي لتأمين استقرار الحكم العربي ما لم يتابع السيطرة على المناطق التي حولها والتي قد يتخذها الروم قواعد لاستعادة ما فقدوه. وكانت الصورة واضحة للتقدم إلى الشمال حيث كان هرقل لا يزال مقيماً في أنطاكية يتحين الفرص لإعادة الهجوم على العرب. وكان العرب المتنصّرة قد ازدادت شكوكهم بقوة الروم وهزت عواطفهم انتصارات العرب الذين تربطهم بهم صلات اللغة وما يتصل بها من ثقافة، وكان لاعتناقهم المذهب اليعقوبي المخالف للأرثوذكسية التي يعتنقها الروم أثر في زيادة إضعاف هيمنة الروم، وكان أهل الأراضي من الفلاحين والزراع مجرّدين من القوة وقد أرهقتهم الضرائب التي لا بد أن أعباءها ازدادت للصرف على الجند. ولم يصادف العرب في تقدُّمهم بعد فتح دمشق، جيشاً يقاومهم، واقتصرت المقاومة على عدد من المدن التي اعتمدت في مقاومتها على حصانة مواقعها وأسوارها والعدد القليل المتعصب للروم من سكانها والذين أجلوا بعد الفتح، أما غالبية

السكان فلم يبدوا مقاومة فعالة، وبقوا بعد الفتح في مدنهم وتعاونوا مع العرب.

لذلك سارع أبو عبيدة إلى ضمّ الأقسام الشمالية من بلاد الشام، فترك يزيد بن أبي سفيان يتولى إدارة دمشق، وتقدّم إلى بعلبك وهي أكبر مدن سهل البقاع الخصب ولها أهمية حضارية وتجارية، وتمر بها طرق التجارة بين دمشق وسواحل البحر الجنوبية وقد سلكتها جيوش هرقل عندما تقدمت إلى اليرموك، فالسيطرة عليها تؤمن الجناح الغربي لدمشق. وكان سكانها من ذوي الأصول العربية، وفيها جاليات رومية وفارسية، فاضطر أهلها إلى الاستسلام وطلبوا الصلح، وعقد لهم أبو عبيدة معاهدة أمن فيها أهلها وتجاراتهم وأمهل الروم مدة شهرين ليغادروها بعدها[1].

ثم تقدّم المسلمون إلى حمص، وهي المدينة الرئيسة بعد أنطاكية في شمال بلاد الشام، وكانت مركز تحشد جيشه الذي كان يرسله لمقاومة العرب

ويقول الواقدي إن أبا عبيدة وجّه إليها السمط بن الأسود الكندي فأجبر أهلها على طلب الصلح، ثم قدِمَها أبو عبيدة فثبت الصلح، ثم صالح أهل حماه وشيزر والمعرة وأفامية، وبذلك أمن سيطرة العرب على المنطقة وأقام فيها جنداً، فأصبحت من أبرز أمصار بلاد الشام، وأرسل منها حملات أخضعت الموانىء القريبة منها على البحر المتوسط[2].

---

(١) فتوح البلدان ١٢٩ ـ ١٣٠؛ تاريخ خليفة ٩٩ (ينسب الفتح إلى خالد)

(٢) فتوح البلدان ١٣٤؛ تاريخ خليفة ٩٩

متابعة العرب تقدُّمهم في شمال بلاد الشام

إن ضم العرب حمص إلى دولتهم حرم الروم من قاعدة كبيرة كانوا يرتكزون عليها في السيطرة على شمال بلاد الشام، كما أنه أوصل العرب إلى منطقة في أحوالها بعض الاختلاف عن أواسط وجنوب بلاد الشام، حيث إنها أبعد من جزيرة العرب وأقرب إلى بلاد الروم، ولم تكن قد وصلتها الجيوش العربية من قبل، كما أن هرقل كان يقيم فيها إذن تقدُّم الجيوش العربية، وفي بواديها عشائر من تنوخ وسليح ليست لها صلة قوية بعشائر جزيرة العرب، بالإضافة إلى قربها من الموانىء الكبيرة في إنطاكية وطرابلس ثم إن تقدُّم الجيوش العربية إليها حدث متأخراً وتالياً لتقدمهم في بلاد واسعة من الأردن وفلسطين وجنوب وأواسط بلاد الشام، مما كان يتطلب إقامة حاميات في المراكز الرئيسة للبلاد التي ضمت إلى العرب، لذلك لم يكن بإمكان العرب أن يرسلوا إليها قوات كبيرة كالتي وجهوها إلى مدن فلسطين والأردن ودمشق

غير أن كل هذه الأحوال لم تَحُلْ دون وجوب ومتابعة تقدُّم العرب بسرعة لإكمال ضم بلاد الشام إلى دولة العرب قبل أن يجمع الروم قوات لتثبيت أقدامهم فيها وتهديد دولة العرب في بلاد الشام

ولما أتم أبو عبيدة السيطرة على حمص تقدّم وعلى مقدمته خالد بن الوليد إلى قنسرين، فقاومه أهلها ثم طلبوا الصلح، فصالحهم على مثل صلح حمص، وغلب المسلمون على أرضها وقراها[1]

ثم سار أبو عبيدة وعلى مقدمته عياض بن غنم الفهري إلى حلب، فأبدى أهلها مقاومة، ثم طلبوا من عياض الصلح والأمان على أنفسهم وأموالهم وسور مدينتهم وكنائسهم وحصنها، ويُروى أن أهل حلب أخلوا المدينة عند تقدُّم جيوش المسلمين، وانتقلوا إلى أنطاكية، ثم عادوا بعد أن أمن أبو عبيدة صلحهم[2].

---

(1) فتوح البلدان ١٤٣؛ تاريخ خليفة ١١٥ (يذكر أن عمرو بن العاص صالح حلب ومنبج وإنطاكية وقنسرين في سنة ١٦، ولعل اسم عمرو ذكر خطأ)

(2) فتوح البلدان ١٤٥ ـ ٦.

وفي طريق تقدُّم المسلمين إلى حلب عرض أبو عبيدة على تنوخ، وكانت تقيم في أطراف قنسرين، الإسلام فأسلم بعضهم وأقام بنو سليح على النصرانية وفعل مثل هذا بحاضر طي وحاضر حلب فتمسكوا بالنصرانية فعرض عليهم الجزية[1] وفتحوا معرة مصرين وخناصرة وقورس[2].

الموانئ الشمالية

ولما أتم أبو عبيدة بن الجراح السيطرة على حمص وحماه وما بينهما أنفذ عبادة بن الصامت الأنصاري إلى اللاذقية ففتحها عنوة بعد قتال قوم من نصاراها، فطلبوا منه الأمان وعادوا إلى أرضهم فقوطعوا على خراج يؤدونه قلّوا أو كثروا[3] ثم تقدم عبادة بن الصامت ففتح جبلة، وكانت حصناً للروم، فجلا أهلها عنها ثم أعاد بناءها معاوية[4]، وقد تقدم عبادة إلى أنطرسوس وفتحها بعد أن جلا عنها أهلها، وقد أعاد معاوية بناء حصن جبلة وانطرسوس واللاذقية وحصنها وشحنها بالمقاتلة[5].

وبعد أن أتم أبو عبيدة السيطرة على حلب تقدّم إلى أنطاكية، وكانت أكبر المدن في شمال بلاد الشام ولها تاريخ طويل وقد لجأ إليها عدد كبير من أهل جند قنسرين المؤيدين للروم، وأجبر أهلها على الصلح، وجلا بعضهم ثم نقضوا الصلح، فوجّه إليهم أبو عبيدة عياض بن غنم وحبيب بن مسلمة ففتحاها على الصلح الأول ووضع فيها مرابطة من المسلمين[6].

---

(1) فتوح البلدان ١٤٤.

(2) فتوح البلدان ١٤٨.

(3) فتوح البلدان ١٣١ ـ ٢.

(4) فتوح البلدان ١٣٢.

(5) فتوح البلدان ١٣٣ ونشير إلى أن كتاب «طوبوغرافية سوريا» لدوسو لا يزال أوسع كتاب في وصف مواضع هذه الأماكن، وأن الجزء الأول من كتاب «بغية الطلب» لابن العديم فيه معلومات غنية أخذ كثيراً منها عن البلاذري، وأضاف إليها معلومات من مصادر أخرى.

(6) فتوح البلدان ١٣٦. وانظر عن أنطاكية كتاب «أنطاكية» لدوني نقله إلى العربية إبراهيم نصحي وانظر «أنطاكية مدينة الله» لأسد رستم

ثم سار أبو عبيدة إلى قورس وكانت كالمسلحة لأنطاكية، وأرسل إليها قوة بقيادة عياض بن غنم فأجبر أهلها على قبول الصلح[1] وبعد أن أتم أبو عبيدة السيطرة على الموانىء الساحلية توجّه لإخضاع المناطق الشرقية، فوجّه عياض بن غنم إلى منبج ثم دلوك ورعبان فصالحهم على مثل صلح أنطاكية[2].

ثم تقدّم أبو عبيدة إلى بالس، وأرسل منها جيشاً بقيادة حبيب بن مسلمة إلى قاصرين فصالحوه، وجلا أكثرهم إلى بلاد الروم ووصل إلى الفرات، فوقف عنده وعاد إلى فلسطين. ورتب أبو عبيدة بالس جماعة من المقاتلة وأسكنها قوماً من العرب الذين كانوا بالشام فأسلموا بعد قدوم المسلمين الشام، وقوماً من قيس نزعوا من البوادي بعد البعوث[3]

وقد أبدت أنطاكية مقاومة تغلّب عليها العرب، وفتحوها، ثم ثارت فأعاد العرب فتحها، ووضعوا فيها قوة من المقاتلة، وتابعوا تعزيز هذه القوة لتمنع تقدُّم الروم من هذه الجهة التي كانت ثغرة يمكن أن يتقدموا منها إلى بلاد الشام، بالإضافة إلى أن الأسطول البيزنطي قد يتخذها قاعدة لحركات تهدد سيطرة المسلمين على السواحل

وأرسل أبو عبيدة حملة فتحت قورس وأقام العرب فيها حامية، كما غزا المصيصة التي صارت فيما بعد من أعظم الثغور الإسلامية.

وأرسل أبو عبيدة قوة عليها عبادة بن الصامت ففتحت اللاذقية وجبلة وأنطرسوس ثم تقدّم أبو عبيدة إلى بالس، وكان فيها الجسر الرئيس على الفرات، ففتحها ووضع فيها حامية من المقاتلة العرب وممن أسلم من عرب الشام.

---

(١) فتوح البلدان ١٤٨.
(٢) فتوح البلدان ١٤٩.
(٣) فتوح البلدان ١٤٩ ـ ١٥٠.

فتح الأردن وفلسطين

كانت الأردن وفلسطين أقرب بلاد الشام إلى الجزيرة العربية، لذلك بدأت بها القوات العربية عندما أعدها أبو بكر الصديق وتوغل عمرو بن العاص آنذاك إلى أطراف غزة، وانتصر على قرية رومية في الداثن ثم انسحب إلى وادي العربة دون أن يفتح أيّ مدينة ويقضي على سلطة الروم فيها، وكانت لتلك الحركات المبكرة أهمية في إظهار قوة العرب وعزمهم على مد دولتهم إلى هذه البلاد، وزادت من معرفة العرب بقوات الروم وتوزيعها، وكان لحسن معاملة العرب أثر كبير في زيادة إضعاف ثقة الفلاحين من أهل البلاد بالروم، وانضمّ إلى جيوشهم الكثير من العشائر المتعرقة التي كانت من قبل تقاتل مع الروم مثل لخم وجدام.

ولم يتابع العرب تثبيت سلطاتهم في فلسطين والأردن في هذه المرحلة وإنما ركزوا جهودهم على القضاء على جيوش الروم التي كانت تتجمع في المدن المحصنة أو في ميادين القتال لمقاومة العرب. وقد أدرك الروم أهمية موقع هذه البلاد فجمعوا فيها الجيوش واختاروا فيها ميادين القتال في أجنادين وفحل واليرموك، حيث إن سيطرتهم على هذه المنطقة تقطع على العرب أيّ تقدُّم إلى الشمال.

وبعد أن أحرز العرب انتصارهم الحاسم في معركة اليرموك بادروا إلى إنفاذ قوات لتثبيت حكمهم فيها وكانوا يدركون الأهمية الروحية والتجارية والعسكرية لهذه البلاد، إذ إن فيها بيت المقدس، وهو ثاني القبلتين وإليه أسرى الرسول (ص) وكانت علاقاتهم التجارية بمدنها، وخصوصاً غزة وبصرى علاقات قديمة، ومنها كانت تأتي قافلة الأنباط بالمنتوجات إلى المدينة بعد الهجرة. ثم إن هذه البلاد كانت لها سواحل طويلة على البحر المتوسط، وفيها موانىء للتجارة وللأسطول ويمكن أن يستعيد منها الروم إذا بقيت في أيديهم، بإنزال قوات تهدد مؤخرة العرب وتقطع صلتهم بالجزيرة إضافة إلى صلتها البرية بأواسط بلاد الشام.

وعندما وَلِيَ عمر بن الخطاب الخلافة جعل أبا عبيدة بن الجراح أميراً على الشام، وقد توجه أبو عبيدة لتصفية الروم في أواسط وشمال الشام، ولم يغفل الأردن وفلسطين «فافتتح الأردن، وقاومت طبرية ثم استسلمت بعد حصار أيام، وأمن أهلها على أنفسهم وأموالهم وأولادهم وكنائسهم ومنازلهم إلا ما جلوا عنه وخلوه، ثم ثاروا واجتمع إليهم قوم من الروم، فاستعاد فتحها كما فتح بيسان وسوسية وأفيق وجرش وبيت راس وقدس والجولان وجميع مدن الأردن وحصونها بغير قتال»[1]، وبذلك أمن سيطرة العرب على سواد الأردن وجميع أرضه كما فتح عكا وفتح صور وصفورية.

ثم وجّه لفتح بقية القرى قواداً، موجّه العاص ففتح غزة وسسطية ونابلس وعمواس وبيت جبرين ويافا ورفح واعطوا أهلها الأمان على أنفسهم وأموالهم ومنازلهم، وعلى أن الجزية على رقابهم والخراج على أرضهم[2]. أما بيت المقدس فإن سعيد بن عبد العزيز يذكر أن عمرو بن العاص حاصرها فطلب أهلها الأمان والصلح على مثل ما صولح عليه أهل مدن الشام على أن يكون المتولي للعقد لهم عمرو بن الخطاب نفسه سنة ١٦[3]. ويذكر الطبري أن علقمة بن حكيم وأبا أيوب هما اللذان حاصرا بيت المقدس، أما الليث فيقول إن عمر بن الخطاب عندما كان بالجابية بعث خالد بن ثابت الفهمي إلى بيت المقدس في جيش، فقاتلهم.

ويذكر الأوزاعي أن بيت المقدس حوصرت بعد أن تم فتح قنّسرين وكُوَرِها سنة ١٦ ، فصالحوا على أن يَقْدِم عمر فينفِّذ ذلك ويكتب لهم

(١) فتوح البلدان ١١٥؛ تاريخ خليفة ١٩٩؛ تاريخ ابن عساكر ١/ ٤٨٥، ويقول الطبري إن هذه الفتوح تمت بعد فتح حمص ١/ ٢٣٩٧.

(٢) فتوح البلدان ١٣٧.

(٣) تاريخ خليفة ١٠٥ عن ابن إسحاق، ويذكر أن الذي فتحها أبو عبيدة وعلى مقدمته خالد بن الوليد.

به[1]. ويذكر الطبري أن عمر جاء لتنظيم إدارة المنطقة وكان العرب يحاصرون إيلياء وهي القدس، فصالحوا عمر على الجزية وفتحوها له[2]. وذكر أن في كتاب صلحهم أن يخرج الروم، ولا يسكنها اليهود[3]، وجعل على إيليا علقمة بن مُجَزِّز[4]، وأبدت الرملة مقاومة استسلمت بعدها. وتم ذلك سنة ١٩ بعد فتح قنّسرين.

وأبدت بعض المدن الساحلية مقاومة لكثرة من فيها من الروم، والإمدادات التي يرجَّح أن هرقل أرسلها من طريق البحر، وكان أبو عبيدة، قد وجَّه إليها عمرو بن العاص ثم أمدَّه بمعاوية ففتحوا المدن الساحلية[5] وحرموا الروم من الموانيء التي يغير منها أسطولهم؛ وإن كانت سيادتهم عليها معرَّضة لغارات أسطول الروم.

تقدَّم عمرو بن العاص بعد فتح بيت المقدس إلى قيسارية، فأبدت مقاومة عنيدة لعدة سنوات، ويذكر البلاذري ما يشير إلى أنها كانت أكبر المدن الساحلية فيقول إنه كان فيها ثلاثمائة سوق قائمة، ويحرس سورها مائة ألف، وفيها من المرتزقة سبعمائة ألف، ومن اليهود مائتا ألف، ومن السامرة ثلاثون ألفاً[6]؛ وفي هذه الأرقام مبالغة واضحة، ولكنها تدل على سعتها، ولا بد أن أسطول الروم عاونها في المقاومة التي دامت عدة سنين انتهت في شوال سنة ١٩؛ باستسلامها لمعاوية الذي أرسله يزيد للمشاركة في فتحها[7]، وباستسلامها للعرب الذين أخذوا من المقاومين فيها سبياً نقلوهم إلى المدينة ووزعوهم على

(١) فتوح البلدان ١٤١؛ تاريخ خليفة ١٨١٢؛ تاريخ ابن عساكر ١/٥٥٣.
(٢) الطبري ١/٢٤٠٣
(٣) الطبري ١/٢٤٠٥ ـ ٦.
(٤) الطبري ١/٢٤٠٧.
(٥) فتوح البلدان ١٣٨.
(٦) فتوح البلدان ١٣٩.
(٧) فتوح البلدان ١٣٩، ١٤١.

أهلها؛ وهي مع عين التمر المدينتان الوحيدتان اللتان ذكرت المصادر نَقْلَ سَبْيٍ منهما إلى المدينة.

ويفتح قيسارية كمل ضم فلسطين إلى الدولة العربية، ولم يتوانَ العرب عن إرسال قوة بقيادة عمرو بن العاص لفتح مصر، وهذا ما سنتحدث عنه في فصل خاص.

موقف الروم

إن المعارك التي خاضها الروم لإيقاف تقدُّم العرب في بلاد الشام ومصر أفقدهم عدداً كبيراً من مقاتلتهم، كما أن اندحارهم وانسحابهم أفقدهم بلاداً غنية في مواردها، وعدداً كبيراً من الموانىء للسفن التجارية والحربية، وكانت للأسطول أهمية كبيرة في دولتهم لأنه يؤمن المواصلات والسيطرة على الأقاليم العديدة التي كانوا يهيمون عليها في أطراف البحر المتوسط

وأدرك هرقل بعد وصول الجيوش العربية حمص أن قواته أصبحت من الضعف لدرجة تجعل محاولة القيام بصدّهم واسترجاع ما ظفروا به عبثاً، ولذلك غادر قاعدته أنطاكية وقال (سلام عليك يا سوريا سلام لا لقاء بعده)[1]. وهذا يعبِّر عن تقديره الصائب لعدم جدوى أيّ محاولة جديدة لاستعادة بلاد الشام والقضاء على الدولة العربية.

غير أن اندحار الروم لم يقضِ على كل بلاد دولتهم، فقد بقيت لهم أقاليم كثيرة في آسيا الصغرى وفي أوروبا وشمال إفريقية، كما كانوا يهيمنون على جزر البحر المتوسط. ومع أن تقدُّم العرب إلى شمال بلاد الشام كان سريعاً وظافراً، إلا أنه تعطل بسبب طاعون عمواس الذي اجتاح البلاد سنة ١٨ وأفنى عدداً من مقاتلتهم، وقضى على عدد من أبرز قوادهم، ورافقه قحط عام في الجزيرة العربية عام الرمادة، فتوقف زحفهم، واستغل هرقل الفرصة فعمل على إخلاء الأراضي الواقعة في جنوب طوروس، وهدم حصونها ومزارعها ليعرقل تقدُّم العرب[2].

جلاء الموالين للروم

غير أن بقاء دولة الروم بعاصمتها القسطنطينية والأراضي الواسعة التي تهيمن عليها في هضبة الأناضول والبلقان شجع عدداً من الموالين لهم في بلاد الشام

---

(١) فتوح البلدان ٣٩.

(٢) فتوح البلدان ١٦٢ ـ ٣

على الاحتفاظ بولائهم لها؛ ودفع كثيراً من هؤلاء الموالين إلى الهجرة من البلاد التي أصبحت في ظل السيادة الإسلامية، فأجلوا عنها، وذكر البلاذري أخبار عدد ممن أجلوا من بلاد الشام إثر سيطرة العرب، وممن ذكرهم جبلة بن الأيهم الذي دخل بلاد الروم مرتداً في ثلاثين ألفاً[1]، وأن الجراجمة همّوا باللحاق بالروم إذ خافوا على أنفسهم[2]، وكان الجلاء من بعض المدن الداخلية ومنها دمشق إذ إنه لما فتحت لحق بشر كثير من أهلها بهرقل وهو بأنطاكية[3]. وأشار البلاذري إلى جلاء بعض أهل طبرية وإخلائهم بيوتهم[4]، وذكر أن الروم أخربت عسقلان وأجلت أهلها عنها في أيام ابن الزبير[5] ولما قَدِمَ أبو عبيدة حلب لم يصادف بها أحداً إذ إن أهلها انتقلوا إلى أنطاكية، ثم صالحهم فعادوا إليها[6]، وأن أهل بالس جلا أكثرهم إلى بلاد الروم وأرض الجزيرة[7]، وجلا خلق من أهل رأس العين[8]، وأهل مرعش[9]. كما خرجت الروم من مدينة الحدث وأجلت عنها أهلها، كما فعلت بملطية[10] وجلا كثير من أهل قاليقلا فلحقوا ببلاد الروم[11].

كان أكثر الجلاء في أهل المدن الساحلية، فلما فتح العرب صيدا وعرقة وجبيل وبيروت وهي سواحل دمشق جلا كثير من أهلها[12]، وهرب أهل طرابلس[13]، كما أن بلدة وهي على فرسخين من جبلة خربت وجلا عنها

---

(١) فتوح البلدان ١٣٥.
(٢) فتوح البلدان ١٥٨.
(٣) فتوح البلدان ١٢٢.
(٤) فتوح البلدان ١١٥.
(٥) فتوح البلدان ١٤٢.
(٦) فتوح البلدان ١٤٦.
(٧) فتوح البلدان ١٤٩.
(٨) فتوح البلدان ١٧٦.
(٩) فتوح البلدان ١٨٥.
(١٠) فتوح البلدان ١٨٩.
(١١) فتوح البلدان ١٩٦.
(١٢) فتوح البلدان ١٢٥
(١٣) فتوح البلدان ١٢٦.

أهلها[١] وكانت أنطرسوس حصناً ثم جلا عنه أهله[٢]، وجلا بعض أهل أنطاكية[٣].

وكان فيما بين الإسكندرونة وطرسوس حصون ومسالح للروم ربما أخلاها أهلها وهربوا إلى بلاد الروم خوفاً، وربما نقل إليها من مقاتلة الروم من تشحن به، وقد قيل إن هرقل نقل أهل هذه المدن معه عند انتقاله من أنطاكية لئلا يسير المسلمون من عمارة ما بين أنطاكية وبلاد الروم، وأن هرقل نقل أهل هذه الحصون، وشعّثها، فكان المسلمون إذا غزوا لم يجدوا بها أحداً

وانتقل أهل ملطية عنها في أيام عبد الله بن الزبير، وخرجت الروم فشعثتها ثم تركتها، فنزلها قوم من النصارى من الأرمن والنبط[٤]، وأرسل أبو عبيدة بن الجراح وهو بمنبج خالد بن الوليد إلى ناحية مرعش ففتح حصنها على أن جلا أهله ثم أخربه[٥].

لم تذكر هوية من جلا سوى الذين صحبوا جبلة بن الأيهم، وهم من عشيرته غسان، وربما فيهم مَنْ مؤيديه من إياد، غير أن الهجرة لم تشمل كل العشيرة، فقد بقي عدد غير قليل من غسان وإياد، وأشغل بعضهم مناصب إدارية كبيرة، مما يدل على أن من بقي قطع صلته بمن هاجر، وأنه أخلص الخدمة للدولة العربية، ولعل كثيراً منهم أسلموا.

وكان الجلاء واسعاً في أوائل الفتح، حيث لم تتضح بعد قوة الدولة وسياستها الاستقرارية المعتدلة، ثم تناقص، إن لم ينعدم فيما بعد، عندما تبيّنت سياسة الحكومة الجديدة، وتبيّنت المصالح الواسعة التي تؤمنها الدولة بين بلاد

(١) فتوح البلدان ١٣٢.
(٢) فتوح البلدان ١٣٢.
(٣) فتوح البلدان ١٤٦.
(٤) فتوح البلدان ١٨٤.
(٥) فتوح البلدان ١٨٧.

الشام والأقاليم الأخرى بما فيها مصر وشمال إفريقية والحجاز، وفُتِحَتْ أبواب جديدة للصلة مع العراق وأقاليم المشرق بعد أن كانت معرقلة بسبب سوء العلاقة بين الساسانيين والروم. ولا بد أن أكثر من جلا هم من الجاليات الإغريقية من رجال الجيش والإدارة، وربما عدد من رجال الدين والتجار وأصحاب الأعمال، ومن المشكوك فيه أن أملاكهم كانت نصف المدن التي قوسم أهلها على أنصاف منازلهم وكنائسهم ولا بد أن بعضهم عاد، كما فعل أهل حلب وبعض تغلب.

توطين العرب وإعمارهم الأراضي

تخلّص العرب بجلاء مؤيدي الروم عن البلاد الإسلامية من عناصر قد يخلُّ بقاؤها بالأمن والاستقرار، ولكنه كان يفقد الدولة الإسلامية لكثير من الخبرات في الإدارة والحياة الحضرية والفكرية أو يؤثر في تدهور الأحوال العمرانية وبخاصة الزراعة وإعمار الأرض، وقد أدرك العرب هذه الأخطار فعملوا على معالجتها بما ينفع العرب ويؤمن الإعمار. وأورد البلاذري معلومات وافية عما اتخذوه من تدابير للحفاظ على إعمار البلاد؛ وفي هذا يقول البلاذري «وكان المسلمون كلما فتحوا مدينة ظاهرة أو عند ساحل رتبوا فيها قدر من يحتاج لها إليه من المسلمين فإن حدث في شيء منها حدث من قبل العدو سربوا إليها الأمداد، فلما استخلف عثمان بن عفان (رض) كتب إلى معاوية يأمره بتحصين السواحل وشحنتها وإقطاع من ينزل بها القطائع ففعل». وأمر عثمان معاوية «أن يعد في السواحل إذا غزا أو أغزى جيوشاً سوى من فيها من الرتب، وأن يقطع الرتب أرضين ويعطيهم ما جلا عنه أهله من المنازل ويبني المساجد ويكبر ما كان ابتنى منها قبل خلافته.. ثم إن الناس بعد انتقلوا إلى السواحل من كل ناحية.

وفي أنطاكية وضع معاوية روابط «ثم إن عثمان كتب إليه يأمره أن يلزمها

قوماً وأن يقطع قطائع فصل»[1] ولما جلا أهل قاليقلا بعث معاوية إليها ألفي رجل وأقطعهم بها القطائع[2]، وأقطع الوليد بن عبد الملك جنداً بأنطاكية أرض سلوقية عند الساحل[3]، ولما جلا بعض أهل رأس العين «اعتمل المسلمون أراضيهم وازدرعوها بإقطاع، ثم لما ولّي معاوية الشام والجزيرة لعثمان بن عفان أمره أن ينزل العرب بمواضع نائية عن المدن والقرى ويأذن لهم في اعتمال الأراضي التي لا حقّ فيها لأحد فأنزل بني تميم الرابية، وأنزل المازحين والمديبر أخلاطاً من قيس وأسد وغيرهم، وفعل ذلك في جميع نواحي ديار مضر ورتب ربيعة في ديارها على ذلك[4]. وقد اعتبر المسلمون من أراضي العشر «ما جلا عنه أهله فأقطعه المسلمون فأحيوه وكان مواتاً لا حقّ فيه لأحد فأحيوه بإذن الولاة»[5]

أما حكم أراضي المدن فذكر البلاذري أن بعضهم صولحوا على أنصاف منازلهم وكنائسهم، ومنها دمشق[6]، وطبرية[7]، والرملة[8]، غير أن معظم المدن لم يحدد فيها مقدار ما أخذه المسلمون، وإنما ذكر أن المدن، ومن ذلك دمشق التي لما فتحت لحق بشر كثير من أهلها بهرقل وهو بأنطاكية فكثرت فضول منازلهم فنزلها المسلمون[9]، ولما هرب أهل صيدا وعرقة وجبيل وبيروت رمّها معاوية، وشحنها بالمقاتلة وأعطاهم القطائع[10]

(١) فتوح البلدان ١٢٧
(٢) فتوح البلدان ١٤٦.
(٣) فتوح البلدان ١٩٦.
(٤) فتوح البلدان ١٧٧.
(٥) فتوح البلدان ١٥١ (عن مكحول)
(٦) فتوح البلدان ١٢٢ (عن الهيثم بن عدي)
(٧) فتوح البلدان ١١٥ (عن الهيثم بن عدي)
(٨) فتوح البلدان ١٤٦.
(٩) فتوح البلدان ١٢٢
(١٠) فتوح البلدان ١٢٦ ـ ١٢٧

ولما هرب أهل طرابلس أسكنها معاوية جماعة كبيرة من اليهود[1]، وأمر عثمان معاوية أن يقطع الرتب أرضين ويعطيهم ما جلا عنه أهله من منازل[2]، وقسم السمط حمص «خططاً بين المسلمين حين نزلوها وأسكنهم كل مرفوض جلا أهله أو ساحة متروكة»[3]، ولما فتح المسلمون أنطرسوس بناها معاوية ومصّرها وأقطع بها القطائع، وكذلك بمرقية وبلنياس[4]، وشحن معاوية اللاذقية وجبلة وأنطرسوس وحصنها وأمضى أمرها على ما أمضى عليه أمر السواحل[5].

وأعاد معاوية فتح قيسارية وأسكنها الروابط ووكّل بها الحفظة[6]، وأقطع أرض سلوقية عند الساحل قرب إنطاكية[7]، وكان أبو عبيدة أسكن بالس «قوماً من العرب الذين كانوا بالشام فأسلموا بعد قدوم المسلمين الشام وقوماً لم يكونوا من البعوث نزعوا من البوادي من قيس، وأسكن قاصرين قوماً»[8].

وفي سنة ٨٤ غزا الصائفة عبد الله بن عبد الملك بن مروان، وأتى المصيصة فبنى حصنها على أساسه القديم ووضع بها سكاناً من الجند فيهم ثلاثمائة رجل من ذوي البأس والنجدة المعروفين، ولم يكن المسلمون سكنوها قبل ذلك، وبنى فيها مسجداً فوق تل الحصن[9].

وجدد هشام حصن المثقب، وحصن قطرغاش، وحصن مورة، وبغراس، وبوقا[10]، ورتب معاوية في ملطية رابطة من المسلمين، وشحنها بجماعة من

---

(١) فتوح البلدان ١٢٦.
(٢) فتوح البلدان ١٢٧.
(٣) فتوح البلدان ١٣٢.
(٤) فتوح البلدان ١٣٢.
(٥) فتوح البلدان ١٣٣.
(٦) فتوح البلدان ١٤١.
(٧) فتوح البلدان ١٤٦.
(٨) فتوح البلدان ١٤٩.
(٩) فتوح البلدان ١٦٤.
(١٠) فتوح البلدان ١٦٥.

أهل الشام والجزيرة وغيرها، ثم انتقل أهلها عنها في أيام ابن الزبير وشعثها الروم، فنزلها بعدهم قوم من النصارى من الأرمن والنبط[1].

وبنى معاوية مدينة مرعش وأسكنها جنداً، ثم انتقل عنها أهلها عندما كثرت غارات الروم عليها بعد موت يزيد بن معاوية، ثم أعاد العباس بن الوليد بن عبد الملك تعميرها وتحصينها ونقل الناس إليها وبنى مسجداً جامعاً، وكان يقطع في كل عام على أهل قنسرين بعثٌ إليها[2].

وأسكن معاوية قاليقلا ألفي رجل وأقطعهم القطائع وجعلهم مرابطة بها[3]، وأسكن مسلمة بن عبد الملك مدينة الباب والأبواب أربعة وعشرين ألفاً من أهل الشام على العطاء[4]، وبنى يزيد بن أسيد أرجيل الصغرى ومدينة أرجيل الكبرى وأنزلهما أهل فلسطين[5].

وكانت دولة الروم تواجه عدداً من المشاكل، ذلك أن ولاء أهل المناطق الشرقية منها، وأكثرهم من الأرمن، ظل ولاءً غير مضمون لها، كما أن حدودها العربية ظلت معرَّضة لهجمات السلاف، يضاف إلى ذلك أن المشاكل الناجمة عن اختلاف العقائد المذهبية كانت مصدر قلق واضطراب فيها. ولكن كل ذلك لم يصل حد تعرُّضها للانهيار، فظلت قائمة تكوّن مصدر أكبر خطر يهدد دولة الإسلام ولا سيما الأقاليم الواقعة على أطراف البحر المتوسط من دولة الإسلام، وخصوصاً بأسطولها الذي كان يجوب البحار. ومع أن كثيراً من الموالين لدولة الروم في هذه الأقاليم تركوا مواطنهم وانسحبوا مع الروم فأفقدوا هذه الأقاليم عناصر كان يمكن الإفادة منها في إعمار البلاد، وأخلّوا بنظمها، إلا أن عدداً من هؤلاء الموالين ظلوا مقيمين في دولة الإسلام يُحْدِثون المشاكل

---

(١) فتوح البلدان ١٨٤.
(٢) فتوح البلدان ١٨٥.
(٣) فتوح البلدان ١٩٦.
(٤) فتوح البلدان ٢٠٦.
(٥) فتوح البلدان ٢٠٨.

لها، ومن أبرز ما قاموا به الثورات التي أحدثوها في الاسكندرية والاضطراب الذي أحدثه الجراجمة في بلاد الشام.

غير أن اندحار الروم لم يقضِ على كل دولتهم، فالتقدم السريع الظافر للجيوش العربية تعطل بسبب طاعون عمواس الذي اجتاح البلاد في السنة الثامنة عشرة للهجرة وأفنى عدداً كبيراً من مقاتلتهم وقضى على عدد من أبرز قوادهم، ورافقه قحط عام في الجزيرة العربية هي ما يسمى عام الرمادة، فتوقف زحفهم، واستغل هرقل الفرصة فأخلى الأراضي التي في الأطراف الشمالية من بلاد الشام، وأخربها لكي يعرقل أيّ محاولة يقوم بها العرب لمتابعة تقدُّمهم وملاحقة الروم في آسيا الصغرى[1].

واتخذ له خطاً دفاعياً صمد الروم عنده في جبال طوروس وهي سلاسل جبلية تمتد من رأس البحر المتوسط إلى شمال الجزيرة الفراتية، وهي وعرة ليس فيها إلا مسالك محدودة تحدد سير الجيوش وحركاتها وتحصرها في دروب محددة مما ييسر الدفاع عنها.

والمنطقة التي وراء هذه الجبال أراضيها متموجة فقيرة بالمنتوجات ومناخها قارس، ويكثر فيها سقوط الثلج شتاء، وأهلها أخلاط من الأرمن والروم، والعرب قليلون فيها، ومدنها متفرقة. وكل هذا يزيد في صعوبة فتحها والسيطرة عليها؛ وقد ظلت سليمة لبعدها عن ميادين القتال مع العرب، وانضاف إليهم أعداد من مؤيدي الروم الذين جلوا عن بلاد الشام والجزيرة الفراتية؛ فزادوا من قواتها وأصبحت دولة الروم أكثر انسجاماً وأشد تماسكاً.

ولم يفقد الروم الأمل في الاحتفاظ بها، فأعادوا تنظيمها لتقف بوجه تقدُّم الجيوش العربية وشحنوها بالرجال، وجعلوا لها أنظمة إدارية تيسر الدفاع عنها، فكان حكامها من القادة العسكريين وأعطيَ الجند المقاتلة فيها إقطاعات من

(١) فتوح البلدان ١٦٢ ـ ٣.

الأرض ليزرعوها ويستقروا فيها، وليكون دفاعهم مزدوجاً لحماية الدولة وحماية أراضيهم الخاصة.

وكان للروم في البحر أسطول فَقَدَ قواعده في بلاد الشام ومصر، وخسر بلاداً كانت تموّل الأسطول بالأخشاب التي تُصنع منها سفنه، وكذلك الصناع وربما المقاتلة، ولكنه لم يشتبك في قتال مع العرب فاحتفظ بقوّته، وعزز قدرة الروم على مناوشة العرب حتى بعد أن أنشأ العرب أسطولاً لهم.

ولا يخفى أن القسطنطينية، وهي قاعدة ملكهم، ظلت سليمة ونائية عن حدود بلاد الدولة وبإمكانها أن تكون قاعدة لتنظيم المقاومة وإعداد الحملات التي تهدد المسلمين، وكان معظم أهلها يعتنقون المذهب الأرثوذكسي، ويقدرون الثقافة الإغريقية التي كانت تتبناها الدولة، ولذلك ظلت مصدر خطر يهدد حكم العرب وبلاد الشام بخاصة التي كان فيها مقر الخلفاء الأمويين.

ولا ريب في أن توسع العرب أفقد الروم ولايات غنية بمواردها ورجالها وموانيها، ولكنه خلّصهم من كثير من المشاكل التي كانت تواجهها في هذه الولايات التي يختلف أهلها عن سكّان إقليم آسيا الصغرى والقسطنطينية، وهم من أرومة العرب، ولهم عقائد مذهبية تختلف عن المذاهب السائدة في القسطنطينية والتي تبناها أباطرة الدولة البيزنطية

إن تقلص بلاد دولة الروم بعد توسع المسلمين كان له أثر في زيادة التناسق فيها، وقد تطلّب إعادة تنظيم إدارتها وزيادة الاهتمام بأحوال المناطق القريبة من حدود الدولة العربية الجديدة كيما تصمد بوجه تقدُّم العرب

غير أن دولة الروم لم تتخلص من مشاكلها كافة، ذلك أن ولاء أهل المناطق الشرقية منها، وأكثرهم من الأرمن، ظل ولاءً غير مضمون لها، كما أن حدودها الغربية ظلت معرَّضة لهجمات الصلاف والبلغار، يضاف إلى ذلك أن المشاكل الناجمة عن اختلاف العقائد المذهبية كانت مصدر قلق واضطراب فيها. ولكن كل ذلك لم يصل حد تعرُّضها للانهيار، فظلت قائمة تكوّن مصدر

أكبر خطر يهدد دولة الإسلام ولا سيما الأقاليم الواقعة على أطراف البحر المتوسط من دولة الإسلام، وخصوصاً بأسطولها الذي كان يجوب البحار.

موقف الدولة الإسلامية

كانت أخطار الروم تشمل أقاليم الدولة الإسلامية الواقعة على البحر المتوسط، وتتطلب معالجتها تعاوناً وتنسيقاً شاملاً في هذه الأقاليم التي كان يدير كلاً منها والٍ ذو سلطات واسعة، ولكن خضوع هؤلاء الولاة إلى خليفة واحد وإدراكهم للمصلحة العامة لدولة الإسلام كانا يدفعانهم إلى التعاون مع بعضهم من أجل تحقيق هذه المصلحة العامة، وقد ازداد توثق التعاون بعد أن صفت الخلافة للأمويين فكان خلفاؤهم المرجع الأعلى في هذا التنسيق الذي حرصوا عليه لمواجهة الروم. ويتجلى هذا التعاون بأوضح مظاهره في استخدام الأسطول الحربي.

وكانت بلاد الشام أكثر الأقاليم تعرضاً لأخطار بلاد الروم ليس من تهديد لأسطول سواحلها فحسب، وإنما أيضاً لطول الحدود البرية بينهما، ثم إنه رغم غنى مصر وثروتها ومكانتها المتميزة في صنع السفن، إلا أن بلاد الشام كانت لقربها من بلاد الروم أكثر تعرضاً للخطر، ووضعها أحرج خصوصاً منذ أن أصبحت في زمن الأمويين قاعدة الخلافة.

أدرك معاوية الأخطار التي تأتي من دولة الروم واهتم بمعالجتها منذ أن جمعت له ولاية بلاد الشام، وتابع الخلفاء الأمويين من بعده هذا الاهتمام الذي تطلب الحفاظ على جيش تلقى على عاتقه مهمات القتال المستمر إضافة إلى إعداد أسطول قوي يعزز الجيش وينقل المقاتلة إلى ميادين القتال خصوصاً في الجزر، ويحميها من تقدُّم الروم، وهذا يعني الاهتمام بالقوات البرية والبحرية والتنسيق بينهما لتحقيق الهدف الأعلى الموحد.

والواجب الرئيس في القتال يقع على القوات البرية، وقد تطلَّب هذا في

بلاد الشام تنظيماً عسكرياً خاصاً في إقامة الحصون وتوزيع القوات والاهتمام بها، وتكليف هذه القوات بالاشتراك في الحملات المتتالية للشواتي والصوائف، وتجهيزها، أي إبقائها مدة طويلة في جبهات القتال بعيداً عن قواعدها ومقام أهلها.

وكان الجند في زمن خلافة عمر وعثمان يجتمعون بالجابية لقبض العطاء وإقامة البعوث من أرض دمشق حتى نقلهم معاوية إلى معسكر دابق التي أصبحت مجمعاً لعساكر الإسلام في كل صائفة من زمن معاوية بن أبي سفيان، فإذا تكامل العساكر وقبضوا عطاءهم ساروا حينذاك إلى جهاد العدو، واستمر ذلك في أيام بني أمية، ولا سيما في أيام سليمان بن عبد الملك، فإنه أقام بدابق سنتين وسيّر أخاه مسلمة لغزو القسطنطينية[1] وكانت الطوالع في كل عام بين ألف وخمسمائة وألفين[2]، وكان الجند يغزون شاتيهم في المراكب[3] أما المراكب فكانت الكبيرة منها تحمل ثلاثة آلاف[4].

تنظيم الدفاع عن سواحل بلاد الشام

إن المدن الواقعة على ساحل البحر المتوسط لها أوضاع جغرافية خاصة أثرت في سَيْرِ فتح العرب لها والحفاظ عليها، فكلها تقع في سهول ساحلية ضيقة، وتمتد وراءها سلاسل جبال لبنان الوعرة، مما يحصر تقدُّم العرب في مسالك محدودة ويعرقل حرية الحركة في جيوشهم، كما أن هذه المدن كانت مفتوحة من جهة الغرب على البحر المتوسط الذي تتواجد فيه سفن أسطول الروم التي لها حرية الحركة في توجهاته، فكانت تيسر لهذه المدن إمدادات عسكرية ووسائل للانسحاب منها. ومع أن الحركات البحرية تتعطل في الشتاء

---

(١) بغية الطلب لابن العديم ٩٦٩٧، تاريخ دمشق لابن عساكر ١١٩/٢ وانظر الطبري ١٣١٥/٢، ١٣٤٠، ١٣٦١.

(٢) فتوح البلدان ١/٤.

(٣) فتوح مصر لابن عبد الحكم ١٩٦.

(٤) المصدر نفسه، ٨٢.

إلا أن طول مدة الدفء يوفر لها وقتاً واسعاً قد تفاجىء فيه العرب وتهدد سيطرتهم ما لم تتخذ تدابير خاصة لمواجهتها وكان أبو عبيدة بعد فتحه حمص وحماه أنفذ عبادة بن الصامت إلى اللاذقية ففتحها بعد أن جلا عنها، ثم تقدم أبو عبيدة ففتح أنطاكية.

فتح العرب سريعاً بعض المدن الساحلية، فيروي البلاذري أن يزيد بن أبي سفيان فتح صيدا وعرقة، وجبيل وعلى مقدمته أخوه معاوية، ففتحها فتحاً يسيراً وجلا كثير من أهلها»[1] «وفتح أبو عبيدة اللاذقية وجبلة وأنطرسوس على يدي عبادة بن الصامت»[2]، ولا بد أن ذلك تم قبل سنة ١٨ التي توفي فيها يزيد بن أبي سفيان وأبو عبيدة بطاعون عمواس وفي هذا الوقت فتح شرحبيل بن حسنة عكا وصور وصفورية[3]، غير أن بعض هذه المدن الساحلية أبدت مقاومة لا بد أنها تمت بمعونة من الأسطول الرومي، وقد تأخر فتح قيسارية، ولم تفتح إلا في شوال سنة ١٩[4].

أما طرابلس فإن يزيد بن أبي سفيان لم يكن يطمع فيها لحصانتها[5]، وتأخر فتحها إلى أن جمعت الشام لمعاوية فوجّه في زمن خلافة عثمان، سفيان بن حبيب الأزدي إليها وحاصرها «وبنى على أميال منها حصناً سُمّيَ حصن سفيان، وقطع المادة عن أهلها من البحر وغيره، وحاصرهم، فلما اشتد عليهم الحصار اجتمعوا في أحد الحصون الثلاثة وكتبوا إلى ملك الروم يسألونه أن يمدهم أو يبعث إليهم بمراكب يهربون فيها إلى ما قبله، فوجّه إليهم بمراكب كثيرة فركبوها ليلاً وهربوا»[6] وبذلك تيسّر لسفيان فتحها.

(١) فتوح البلدان ١٢٥
(٢) فتوح البلدان ١٣٣
(٣) فتوح البلدان ١١٥
(٤) فتوح البلدان ١٣٩.
(٥) فتوح البلدان ١٢٧.
(٦) فتوح البلدان ١٢٦.

ثم استعاد الروم بعض مدن السواحل في آخر خلافة عمر بن الخطاب أو أول خلافة عثمان بن عفان[1]، غير أن معاوية استعادها منهم، وكان مما استعادوه عسقلان، التي كان عمرو بن العاص قد فتحها ثم تمرّد أهلها وأمدهم الروم، ففتحها معاوية مجدداً وأسكنها الروابط ووكل بها الحفظة[2].

وللدفاع عن المدن الساحلية أمر عمر بن الخطاب «في مرمة حصونها وترتيب المقاتلة فيها وإقامة الحرس على مناظرها، واتخاذ المواقيد لها» و«كان المسلمون كلما فتحوا مدينة ظاهرة أو عند ساحل رتبوا فيها قدر من يحتاج لها من المسلمين، فإن حدث في شيء منها حدث من قبل العدو سربوا إليها الأمداد»[3].

وتابع عثمان بن عفان سياسة عمر في ذلك، فلما استخلف «كتب إلى معاوية يأمره بتحصين السواحل وشحنتها وإقطاع من ينزله إياها القطائع ففعل»، ولم تتعطل هذه التدابير بعد بناء الأسطول، فقد أمر عثمان معاوية «أن يعد في السواحل إذا غزا أو أغزى جيوشاً سوى من فيها من الرتب، وأن يقطع الرتب أرضين ويعطيهم ما جلا عنه أهله من المنازل، ويبني المساجد ويكبر ما كان ابتنى منها قبل خلافته. ثم إن الناس بعد انتقلوا إلى السواحل من كل ناحية»[4].

ولما استعاد معاوية في زمن خلافة عثمان مدن السواحل من الروم «رمّها وشحنها بالمقاتلة وأعطاهم القطائع»[5] ولما فتح طرابلس كان يوجه في كل عام إليها «جماعة كثيفة من الجند يشحنها بهم ويوليها عاملاً، فإذا انغلق البحر قفل

---

(1) فتوح البلدان ١٢٥.
(2) فتوح البلدان ١٤٢.
(3) فتوح البلدان ١٢٦.
(4) فتوح البلدان ١٢٦.
(5) فتوح البلدان ١٢٥، ١٢٧.

وبقي العامل في حمية منهم يسيرة، فلم يزل الأمر فيها جارياً على ذلك حتى وَليَ عبد الملك»، غير أن الروم استرجعوها في زمن عبد الملك، ثم استعادها الوليد منهم[1].

وكانت اللاذقية وجبلة وأنطرسوس بعد أن فتحها أبو عبيدة «يوكل بها حفظة إلى انغلاق البحر، فلما كانت شحنة معاوية السواحل وتحصينه إياها شحنها وحصنها وأمضى أمرها على ما أمضى عليه أمر السواحل»[2]، وكذلك فعل بمرقية وبلنياس»[3].

رمّ معاوية عكا عندما تحرك منها لغزو قبرص سنة ٣٤، ورمّ صور، ثم خربت فجددها عبد الملك[4] ونقل معاوية قوماً من فرس بعلبك وحمص وأنطاكية إلى سواحل الأردن: صور وعكا وغيرها سنة اثنتين وأربعين[5]، ونقل «من أساورة البصرة والكوفة وفرس بعلبك وحمص إلى أنطاكية في هذه السنة أو قبلها أو بعدها»[6]. وكانت الروم قد خرجت من الساحل فأناخت على أنطاكية[7].

وفي سنة تسع وأربعين أو سنة خمسين نقل معاوية إلى السواحل قوماً من زط البصرة والسيابجة وأنزل بعضهم أنطاكية، وفي أنطاكية محلة تعرف بالزط، كما أن ببوقا، وهي من عمل أنطاكية، قوم من أولادهم، ثم نقل الوليد بن عبد الملك إلى أنطاكية قوماً من السند، ممن حملهم محمد بن القاسم إلى الحجاج فبعث بهم الحجاج إلى الشام[8].

---

(١) فتوح البلدان ١٢٦ ـ ٧.
(٢) فتوح البلدان ١٣٣.
(٣) فتوح البلدان ١٣٢.
(٤) فتوح البلدان ١١٦.
(٥) فتوح البلدان ١٢٩.
(٦) فتوح البلدان ١٤٣، ١٦١.
(٧) فتوح البلدان ١٤٧.
(٨) فتوح البلدان ١٦١.

وفي فتنة ابن الزبير (حوالى ٦٥هـ) أخربت الروم عسقلان وقيسارية وأجلت أهلها عنها، فلما وَلِيَ عبد الملك حصَّنهم وشحنهما بالرجال[١].

وفي سنة ٨٩ أغار الروم على الاسكندرون، ثم أغاروا في سنة مائة على اللاذقية فطردهم العرب، وأمر عمر بن عبد العزيز ببناء اللاذقية وتحصينها، وزاد يزيد بن عبد الملك في شحنتها[٢].

---

(١) فتوح البلدان ١٤٢

(٢) فتوح البلدان ١٣٢.



الفصل العشرون

نشأة البحرية العربية

اقتصر دفاع العرب عن بلاد الشام في عهد الخليفة عمر بن الخطاب على التنظيمات والحركات البرية، وكان المقاتلة العرب مشغولين في المعارك والفتوح المتتابعة، فلم يكن لديهم الوقت الكافي لإنشاء الأسطول والتدرب على القتال البحري، كما أنهم لم يستطيعوا الركون إلى الملاحين القدماء في الأقاليم التي ضموها حديثاً إلى دولتهم، لاحتمال ميل هؤلاء إلى الروم، فضلاً عن أن القوات البرية ظفرت بنجاحات باهرة جعلتها أهلاً للثقة والاهتمام. وكان معاوية يدرك الأخطار التي تهدد بلاد الشام من جراء عدم وجود أسطول بحري عند المسلمين، فحاول إقناع الخليفة عمر بن الخطاب بالموافقة على إنشاء أسطول إسلامي، ولكن عمر أصرّ على عدم الموافقة لأنه رأى في ذلك مجازفة غير مأمونة العواقب[1].

لم تكن الملاحة مجهولة عند العرب، فمن المعروف أنهم أسهموا فيها منذ أقدم الأزمنة، واحتكر ملاحوهم من أهل اليمن وعُمان الملاحة في المحيط الهندي ونقل السلع من البلاد الواقعة في أطرافه وفي الشرق الأقصى، كما أن

---

(١) انظر فتوح البلدان ١٢٦/١٥١؛ تاريخ خليفة ١٣٥؛ الطبري ١/٢٨٢٠، ٢٨٢٥؛ الخطط للمقريزي ٢/١٩٠.

الفينيقيين كانوا من أكبر ملاحي البحر المتوسط قبل أن يقضي الرومان على نفوذهم، ولا بد أن كثيراً من أهل مدن بلاد الشام الواقعة على سواحل البحر المتوسط كانوا يعملون في صناعة السفن والملاحة، ومثل هذا كان يعمله كثير من المصريين، ومما يسّر لهم ذلك توافر الأخشاب في مصر ولبنان لصناعة السفن، وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تذكر البحر والسفن، مما يدل على أنه حتى أهل الحجاز الذين كانت بلادهم مركز الخلافة ومنهم الخلفاء وكثير من القادة وموجهي السياسة العليا للدولة، كانوا على معرفة بأمر الملاحة والسفن.

ولما وَلِيَ عثمان بن عفان الخلافة كان مقتنعاً بأهمية السفن فأباح إنشاء الأساطيل، فأنشئت أربعة أساطيل كان الأول منها في النيل غرضه فيما يظهر الملاحة فيه، والثاني في القلزم، أي السويس والغرض منه نقل المواد الغذائية، وخصوصاً الحنطة، إلى الحجاز، فهذان الأسطولان غرضهما تجاري سلمي ولم يقم أيٌّ منهما بعمل حربي. وأنشئ أسطول ثالث في الفسطاط حيث أقيمت دار لصناعة السفن في جزيرة الروضة على النيل، ولعل هذا الأسطول كان معداً لإسناد القتال في البحر المتوسط، وكان يصنع من أخشاب الغابات الموجودة في مصر، ويقوم بعمله صناع من المصريين يعملون عادة ستة أشهر في السنة بموجب عقود مع الولاة العرب[1].

والأسطول الإسلامي الرابع هو الذي أنشأه معاوية، فقد أمر بجمع الصناع النجارين فجمعوا إدارتهم في السواحل، وكانت تصنع السفن من أخشاب الغابات، ودار صناعتها في عكا، ثم نقلت إلى صور في زمن الخليفة هشام بن عبد الملك، وظلت قاعدة الاسطول حتى العصر العباسي حيث أمر المتوكل في سنة ٢٤٧ بترتيب المراكب بعكا وجميع السواحل وشحنها بالمقاتلة[2]

---

(١) انظر تفاصيل وافية في كتاب «التنظيم البحري الإسلامي في شرق المتوسط» لعلي محمود فهمي.

(٢) فتوح البلدان ١١٦، وانظر عن عكا تاريخ دمشق لابن عساكر ٢/ ٣٠.

تطلّب بناء الأسطول واستكمال عدته بعض الوقت، وفي سنة ٢٨هـ أصبح قوياً لدرجة مكنت معاوية في تلك السنة من القيام بحملة على قبرص، قادها بنفسه بعد أن أتم إعدادها وحافظ على سريتها ولم يجبر أحداً على الاشتراك فيها، وإنما ترك باب التطوع والاختيار مفتوحاً لمن يريد الانضمام إليها، ومع هذا فقد تطوع للاشتراك فيها عدد من بارزي الصحابة، ومنهم أبو الدرداء وصحب معاوية عدد ممن شاركوا فيها زوجاتهم[1].

ولقبرص أهمية كبيرة، فهي جزيرة واسعة قريبة من سواحل بلاد الشام، تصلح أن تكون قاعدة يهدد الروم منها هذه السواحل، فسيطرة العرب عليها يبعد عنهم خطر الروم، ويؤمن هيمنتهم على شرق البحر المتوسط والتحكم في ساحل إنطاكية وجنوب الأناضول، وييسر لهم تهديد حركات سفن الروم الحربية والتجارية في تلك المنطقة.

كانت غزوة قبرص أول غزوة بحرية، ولم يركب المسلمون بحر الروم قبلها، وتحرك معاوية من عكا سنة ٢٧هـ، ومعه مراكب كثيرة، ودخل قبرص دون مقاومة، وعقد مع أهلها صلحاً يؤدون بموجبه للمسلمين سبعة آلاف ومائتي دينار في كل عام، وصالحهم الروم قبل ذلك، فهم يؤدون فرجَين، واشترطوا ألا يمنعهم المسلمون أداء الصلح إلى الروم، واشترط عليهم المسلمون ألا يقاتلوا عنهم من أرادهم من ورائهم، وأن يؤذنوا المسلمين سير عدوهم من الروم، فكان المسلمون إذا ركبوا البحر لم يعرضوا لهم ولم ينصرهم أهل قبرص ولم ينصروا عليهم[2]، أي إنهم يقفون على الحياد.

غير أن أهل قبرص لم يحافظوا على شروط الصلح، ففي سنة ٣٢هـ، أعانوا الروم على الغزو في البحر بمراكب أعطوهم إياها، فغزاهم معاوية سنة ٣٣ في خمسمائة مركب، ففتح قبرص عنوة، فقتل وسبى ثم أقرّهم على صلحهم، وبعث إليها اثني عشر ألفاً كلهم أهل ديوان، فبنوا فيها المساجد،

(١) فتوح البلدان ١٥٣؛ الطبري ٢٨٢٦/١
(٢) فتوح البلدان ١٥٢

ونقل إليها جماعة من بعلبك، وبنى بها مدينة، وأقاموا يعطون الأعطية إلى أن توفي معاوية[1].

ظلت الحامية العربية في قبرص إلى أن وَلِيَ يزيد «فأقفل ذلك البعث وأمر بهدم المدينة»، ويُروى أنه فعل ذلك لقاء مبلغ من المال أخذه من الروم، «فلما قفلوا هدم أهل قبرص مدينتهم ومساجدهم»[2].

غير أن قبرص ظلت تدفع الجزية للمسلمين، ثم زادها عليهم عبد الملك فجعلها ألف دينار، ثم أرجعها عمر بن عبد العزيز إلى سبعمائة، وردَّها هشام إلى ألف. وفي أوائل الدولة العباسية اتخذوا مواقف مشبوهة فأراد العباسيون معاقبتهم، وأثار ذلك جدلاً عند الفقهاء[3].

أدرك الروم خطر تنامي القوة البحرية الإسلامية على سلطانهم في البحر المتوسط، بعد أن فقدوا بلاد الشام ومصر وكثيراً من أقاليم شمال إفريقية، فجمعوا أسطولاً ضخماً تذكر المصادر العربية أنه يبلغ ألف سفينة، وقد يكون في هذا الرقم مبالغة، إلا أنه لا يقل بأي حال عن خمسمائة سفينة، وتقدموا فيه عازمين على تحطيم الأسطول العربي واستعادة سيادتهم في شرق البحر المتوسط.

أما العرب فقرروا بدورهم العمل على الاحتفاظ بسيادتهم فأرسلوا في سنة ٣٤هـ أسطولاً قوامه مائتا سفينة بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح والي مصر، لاقى الأسطول الرومي قرب سواحل الأناضول الجنوبية ونشبت معركة تسمى «ذات الصواري» لكثرة السفن التي اشتبكت فيها، وتقاربت سفن الفريقين من بعضها، فكان المقاتلون يقاتلون بالنبل والحجارة، ثم ربط العرب مراكبهم بمراكب الروم بالسلاسل، وأنشبوا القتال على ظهر السفن، وكأنه قتال على البر فانتصر العرب انتصاراً تاماً، وعطبوا أكثر مراكب الروم وقتلوا رجالها، وفرَّ

(١) فتوح البلدان ١٥٢، ١٥٣؛ الطبري ١/٢٩٠٧، ٢٩٢٦

(٢) فتوح البلدان ١٥٢ ـ ١٥٣.

(٣) فتوح البلدان ١٥٤؛ الأموال لأبي عبيد ١٧١ ـ ١٧٥

الامبراطور قسطنطين، وكان قائد الروم فيها والي صقلية حيث توفي على أثرها[1].

كان اندحار الروم في موقعة ذات الصواري عميق الأثر، فلم يقوموا بعده بعمل لاستعادة سيادتهم في شرق البحر المتوسط، وتوقفوا عن غزو المدن الإسلامية على ساحله، وقد تلاه انشغال الدولة بمشاكل داخلية.

كان انتصار العرب في ذات الصواري انتصاراً كبيراً، غير أنهم لم يستغلوه بسبب الانقسامات التي حدثت بينهم بعد مقتل عثمان وما تلاه من نزاع بين علي ومعاوية فعقد معاوية صلحاً مع الروم على أن يؤدي إليهم مالاً[2].

تابع معاوية بعد أن صفت له الخلافة الاهتمام بأمر البحر وتأمين سيطرة الإسلام فيه، وقدم قائده جنادة بن أبي أمية الأزدي بفتح رودس سنة ٥٢، ثم فتح جزيرة أرواد سنة ٥٤ وأسكنهما المسلمين، كما فتح هذا القائد إقريطش (كريت)[3]، وغزا معاوية بن حديج صقلية لأول مرة[4].

غير أن الأسطول البيزنطي لم يقض عليه، ففي سنة ٥٣ غزا الروم البرلس في مصر، واستشهد علقمة بن يزيد في جمع كثير من الناس[5].

واستخدم معاوية في غزو البحر المقاتلة من أهل اليمن، ولعله فعل ذلك للإفادة من خبراتهم في الملاحة والقتال في البحر، ويبدو أنه كان يوفر لهم عطاء أكبر مما كان يوفره لمقاتلة البر، ثم اشترك في قتال البحر مقاتلة من مضر، فيروي ابن عساكر: «كان معاوية يغزي اليمن في البحر ويغزيهما (اليمن

---

(١) فتوح مصر لابن عبد الحكم ١٩٠؛ ولاة مصر للكندي ١٣؛ التنبيه والإشراف للمسعودي ١٣٥.

(٢) فتوح البلدان ١٥٨

(٣) فتوح البلدان ٢٣٥. وينقل الطبري عن الواقدي أن رودس فتحت سنة ١٥٣ (/١) وأرواد سنة ٥٤ (/١) وأن جنادة شتى سنة ٥٦ (/١) وأنه غزا البحر في سنتي ٥٨ (/١) و٥٩ (/١) وأنه هدم مدينة رودس سنة ٦٠ (/١).

(٤) فتوح البلدان ٢٣٤.

(٥) الولاة للكندي ٣٨.

ومصر) في البر» وأنه قال لمسكين الدرمي «أنا أغزيكم في البحر لأنه أرفق من البر وأقل مؤنة وأنا أعاقب بينكم في البر والبحر»[1]. ولعل هذا هو المبرر لأن يكون قائد البحر في زمنه جنادة بن عوف الأزدي[2]، وكان مقرباً من معاوية حتى إنه أراد استلحاقه أخاً كما فعل بزياد والي العراق، ولكن جنادة أبى ذلك[3].

ولما وَلِيَ يزيد الخلافة أوقف غزو البحر، كما أوقف الشواتي، وسحب الحاميات الإسلامية من الجزر التي فتحوها في شرق البحر المتوسط، وجعل الاعتماد الرئيس على القوات البرية التي أفلحت في نشر دولة الإسلام على أقاليم شرق وجنوب وغرب البحر المتوسط كافة، فحرمت أساطيل الروم من قواعدها في تلك الأقاليم، علماً بأن المسلمين أقاموا في الأندلس وإفريقية دور صناعة وأسطولاً[4] فيما بعد، ومن الطبيعي أن هذا لا يمتد إلى الملاحة البحرية التي ظلت نشطة وأكثرها بيد العرب.

مقاتلة الروم وحصار القسطنطينية

أدرك معاوية أن الخطر على أمن بلاد الشام وأقاليم البحر المتوسط التي ضمها العرب إلى دولتهم سيظل قائماً ما دامت الدولة البيزنطية قائمة، وأن عماد هذه الدولة هو عاصمتها القسطنطينية، فالسبيل الوحيد لقطع دابرها والقضاء عليها هو الاستيلاء على تلك العاصمة. ويروي خليفة بن خياط أنه في سنة ٣٢ «غزا معاوية المضيق من القسطنطينية»[5] وهذه المحاولة، إن صحّت، فهي تعبّر عن إدراك معاوية أهمية القسطنطينية. ولم تذكر المصادر تفاصيل عن هذه الغزوة التي حدثت بعد إنشاء المسلمين أسطولهم الحربي، كما أن خليفة لم يذكر الطريق الذي سلكه معاوية في الغزو، ولعله سلك طريق البر فيها ولم يستعن

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ٢/ ٣٠.
(٢) تاريخ خليفة ١٥٩.
(٣) الأنساب لابن حزم ٣٨٦
(٤) تاريخ الإسلام للذهبي ٢/ ١٢٠.
(٥) تاريخ خليفة ١٤٣.

بالأسطول الإسلامي، كما أن هذه الحركة لم تكن كبيرة، ولم تظفر بنجاح، فلم يتردد ذكرها في المصادر، ولم يدخلها المسعودي في عداد محاولات العرب فتح القسطنطينية.

ثم انشغل معاوية والدولة الإسلامية بالنزاعات الداخلية بعد مقتل عثمان فاستغل الروم ذلك، وحاولوا تهديد الدولة، فاضطر معاوية إلى موادعتهم ودفع مبلغ من المال لهم للكفّ عن محاولاتهم[1]، فلما صفت له الخلافة عاد إلى الاهتمام بأمر الروم وقتالهم والعمل على اجتثاث خطرهم.

ويروي الواقدي أنه في سنة ٤٣، غزا بسر بن أبي أرطاة الروم وشتى في أرضهم حتى بلغ القسطنطينية. وذكرت المصادر غزو بسر أرض الروم[2] غير أنهم لم يذكروا وصوله القسطنطينية أو ظفره بنجاح كبير

حصار القسطنطينية الأول

وأول حملة كبيرة لفتح القسطنطينية هي التي أنفذها معاوية بن أبي سفيان في سنة ٥٠هـ، ومهد لها بحملات تتابعت أربع سنوات على آسيا الصغرى، وكانت «شواتي» يقيم في كل منها الجيش في الشتاء، ثم تقدّم الجيش البري الكبير على رأسه يزيد بن معاوية، يسانده أسطول بحري قوي، وشارك في الحملة عدد من الصحابة، من أبرزهم أبو أيوب الأنصاري، الذي كان الرسول (ص) قد نزل داره في أول الهجرة[3].

---

(١) تاريخ خليفة ١٨٩؛ فتوح البلدان ١٦١؛ أنساب الأشراف ٥/ ٢٩٩؛ تاريخ اليعقوبي ٢/ ٣١٣؛ مروج الذهب ١/ ٣٦٣.

(٢) الطبري ٢/ ٢٧؛ تاريخ خليفة ١٩٠؛ تاريخ اليعقوبي ٢/ ٢١٣

(٣) الطبري ٢/ ٨٦؛ تاريخ خليفة ١٩٦؛ أنساب الأشراف ٤ ـ ١/ ٧٠، ٤ ـ ٢/ ٣؛ نسب قريش لمصعب الزبيري ١٣٠؛ المحاسن والمساوئ للبيهقي ١٤.
وعن مقاتلة الروم وحصار القسطنطينية أبحاث كثيرة من أبرزها: كتاب عبد الهادي شعيرة «النزاع بين العرب والروم» (بالفرنسية) وبحث كنارد «حملات العرب على القسطنطينية» المنشور في المجلة الآسيوية ١٩٢٦، وكتاب إبراهيم العدوي «القوات البحرية الإسلامية»

تقدَّم الجيش مخترقاً آسيا الصغرى حتى وصل القسطنطينية فحاصرها سنة ٥٣ تحمَّل فيها العاصمة كثيراً من الشدائد غير أنها صمدت، وأضرمت النار الإغريقية بسفن المسلمين فأدركوا عدم جدوى الحصار وانسحبوا.

حصار القسطنطينية الكبير

أدرك الوليد بن عبد الملك أن الصوائف والشواتي تقتصر على مناطق الحدود، وتستنزف كثيراً من الجهود والأموال والرجال، وأن الخطر البيزنطي سيبقى ماثلاً ما لم يتم الاستيلاء على القسطنطينية واجتثاث الروم، فأعدَّ حملة تتكون، فيما يقال من مائتي ألف جندي وخمسة آلاف سفينة، وأودع قيادتها لأخيه مسلمة بن عبد الملك يعاونه عبد الله البطال الذي كان من أشجع الفرسان المسلمين. غير أن الوليد توفي قبل إنفاذ الحملة، ووَلِيَ الخلافة بعده سليمان الذي كان من أول أعماله إنفاذ الحملة.

تقدمت الحملة سنة ٩٧ في أواسط آسيا الصغرى، وفتحت عمورية حيث كان أهل تلك المنطقة مستائين من حكم الإمبراطور البيزنطي، ثم توجهت إلى القسطنطينية فوصلتها، وعبرت بعض القوات العربية البر الأوروبي فأكملت تطويق العاصمة وحاصرتها حصاراً شديداً، وكان يعززها أسطول كبير بقيادة عمر بن هبيرة[1]. غير أن أهل القسطنطينية صمدوا لهذا الحصار، وولوا عرشهم ليو الإيسوري وهو قائد ماهر كان قد شارك في عدد من الحروب ضد العرب، وكان يعرف العربية، ويعرف أساليب العرب في القتال، فاستطاع أن يصمد وأن يبث الحماس في قلوب سكان العاصمة المحاصرة، ثم اتصل بالجُزر وحرضهم على الهجوم على العرب، غير أن العرب لم يستطيعوا أن يفتحوا ثغرة في أسوار القسطنطينية، وتدمر الكثير من سفنهم بفعل النار الإغريقية وهي قذائف نارية لا تنطفىء بالماء؛ كما تأثر جيشهم ببرد الشتاء القاسي وبنقص الأغذية

(١) الطبري ١٢/١٣٠٦، ٥/١٣؛ تاريخ خليفة ٣١٩؛ تاريخ اليعقوبي ٢/٣٤٢، وانظر عن الأسطول: الطبري ٢/١٣٠٦؛ التنبيه والإشراف ١٤١

وخصوصاً أن معظم الفلاحين في المنطقة هربوا وتركوا أراضيهم دون زرع، وكانت قواعد الجيش العربي بعيدة جداً، ثم تمرّض هذا الجيش للوباء. فأدرك المسلمون حينذاك عدم إمكان تحقيق غرضهم في فتح القسطنطينية بعد أن قضوا في حصارها سنتين، فلما وَلِيَ عمر بن عبد العزيز الخلافة أمر بسحب الجيش ووجّه خيلاً وطعاماً لتيسير انسحاب المسلمين[1].

خلدت هذه الحملة اسم مسلمة وعبد الله البطال، ووضعت مسلمة في مصاف أعظم القواد الذين أنجبهم الإسلام. إلا أنها لم تحقق غرضها في فتح القسطنطينية، فكانت هذه الحملة آخر محاولة جدية يقوم بها العرب لفتح القسطنطينية وإزالة دولة الروم، كما أنها كانت آخر محاولة يقوم بها الأمويون للتوغل في آسيا الصغرى، وقد اتخذ العرب منذ ذلك الوقت موقفاً دفاعياً بشكل عام

---

(١) تاريخ خليفة ٤٢٣٦، الطبري ٢/ ١٣٤١



الفصل الحادي والعشرون

الدفاع البري عن الشام

بعد أن دمّر العرب الجيش البيزنطي في اليرموك وفتحوا بلاد الشام وجهوا قواتهم شرقاً نحو الجزيرة الفراتية وأرمينية، ولكنهم توقفوا عند أطراف جبال طوروس ولم يحاولوا تجاوزها. واغتنم الروم هذه الفرصة فأخربوا كثيراً من الحصون التي في تلك المنطقة وأجلوا أهلها لكي يحرموا العرب من الإفادة منها وتحصنوا في مرتفعات طوروس، وبذلك كانوا يطلّون على شمال بلاد الشام، ويكوّنون مصدر خطر على الحكم الإسلامي علماً بأن هذه المنطقة تمر بها أقصر الطرق بين القسطنطينية وبلاد الشام.

يقول البلاذري «الثغور المسلمين الشامية أيام عمر وعثمان (رض) وما بعد ذلك أنطاكية وغيرها من المدن التي سمّاها الرشيد العواصم»[1]، ويقول أيضاً إن الرشيد «أفرد منبج ودلوك ورعبان وقورس وأنطاكية وتيزين وسمّاها العواصم»[2]. ويذكر عن البلدان الثلاثة الأولى أن أبا عبيدة فتحها وأنه ولّى «كل كورة فتحها عاملاً وضم إليه جماعة من المسلمين وشحن النواحي المخوفة»[3]، كما يذكر أن المسلمين كانوا «كلما فتحوا مدينة ظاهرة أو عند ساحل رتبوا فيها قدر من يحتاج لها إليه من المسلمين، فإن حدث في شيء

(١) فتوح البلدان ١٦٢.
(٢) فتوح البلدان ١٣١، وانظر ياقوت ٣/ ٧٤٢
(٣) فتوح البلدان ٣١٥

منها حدث من قبل العدو سربوا إليها الأمداد، فلما استخلف عثمان بن عفان (رض) كتب إلى معاوية بتحصين السواحل وشحنها وإقطاع من ينزله إياها القطائع ففعل»[1]. ويذكر أيضاً أن أبا عبيدة «افتتح اللاذقية وجبلة وأنطرطوس على يدي عبادة بن الصامت، وكان يركن بها حفظة إلى انغلاق البحر، فلما كانت شحنة معاوية السواحل وتحصينه إياها شحنها وحصّنها وأمضى أمرها على ما أمضى عليه أمر السواحل»[2].

يظهر من هذا أن المنطقة الخطرة «الثغور» كانت محصورة بين أنطاكية ومنبج، وأن هاتين المدينتين هما الركيزتان، ومن الطبيعي أن أنطاكية كانت أعظم خطراً وأكبر أهمية لأنها كانت، بعد دمشق، أكبر مدينة في بلاد الشام، ومن أعظم معاقل المسيحية والثقافة الإغريقية، وكانت من أكبر موانىء البحر المتوسط الذي يهيمن عليه الأسطول البيزنطي ولما أحرز العرب انتصاراتهم الأولى في بلاد الشام اتخذها هرقل قاعدة لها لإدارة الحرب مع المسلمين[3]، ولما فتحت دمشق لحق به فيها عدد من أهل دمشق[4]، فلما تقدّم العرب وفتحوا حلب غادرها إلى القسطنطينية[5].

وقد أبدت أنطاكية مقاومة للعرب، ولكن أبا عبيدة تغلّب على المقاومة وفتحها وجلا بعض أهلها[6]، ثم ثارت من جديد فأعاد فتحها[7] ورتب فيها جماعة من شجعان المسلمين فكانوا رابطة فيها[8] فلما وَلِيَ عثمان الخلافة أقام

(1) فتوح البلدان ١٢٧.
(2) فتوح البلدان ١٣٣.
(3) فتوح البلدان ١١٣
(4) فتوح البلدان ١٣٢.
(5) فتوح البلدان ١٣٦.
(6) فتوح البلدان ١٤٦، ١٤٨.
(7) فتوح البلدان ١٤٦، ١٥٨.
(8) فتوح البلدان ١٤٦.

فيها حامية وأقطعهم قطائع[1]، ولما استقرت الخلافة لمعاوية نقل إليها سنة ٤٢ «جماعة من الفرس وأهل بعلبك وحمص والمصرين»[2] وفي سنة ٤٩ نقل إلى السواحل قوماً من زط البصرة والسيابجة وأنزل بعضهم أنطاكية[3] غير أنه نقل بعض فرسها إلى سواحل الأردن وعكا[4].

يقول البلاذري: «كان فيما بين الاسكندرونة وطرسوس حصون ومسالح للروم.. فربما أخلاها أهلها وهربوا إلى بلاد الروم خوفاً، وربما نقل إليهم من مقاتلة الروم من تشحن به، وقد قيل إن هرقل أدخل أهل هذه المدن معه عند انتقاله من أنطاكية لئلا يسير المسلمون في عمارة ما بين أنطاكية وبلاد الروم»[5] فلما غزا أبو عبيدة الصائفة فمرّ بالمصيصة وطرسوس.. جلا أهلها وأهل الحصون التي تليها»، فلما غزا معاوية غزوة عمورية في سنة خمس وعشرين وجد الحصون فيما بين أنطاكية وطرسوس خالية، فوقف عندها جماعة من أهل الشام والجزيرة وقنسرين حتى انصرف من غزاته. واستمر ولاة الطوائف يعملون مثل عمله[6]، ففي سنة ٣٧ غزا معاوية من ناحية المصيصة «فلما خرج جعل لا يمر بحصن فيما بينه وبين أنطاكية إلا هدمه»[7]. ومن الواضح أن هذه تدابير دفاعية لحرمان الروم من قواعد يغيرون منها على المسلمين أو يراقبوهم

كانت أنطاكية القاعدة العسكرية الرئيسة، فتحصينها يؤمن سد الثغرة التي يمكن أن ينفذ منها الروم إلى بلاد الشام، ويلاحظ أن الأسطول البيزنطي كان في السنوات الأولى التي تلت الفتح المصدر الرئيس المباشر للخطر الذي يهدد هذه البلاد، وأن معاوية منذ أن وَلِيَ الشام حصّن عدداً من مدن السواحل

(١) فتوح البلدان ١٤٧.
(٢) فتوح البلدان ١٤٧.
(٣) فتوح البلدان ١٦١.
(٤) فتوح البلدان ١٦١.
(٥) فتوح البلدان ١٦٢.
(٦) فتوح البلدان ١٦٤.
(٧) فتوح البلدان ١٦٤

وشحنها. ومن الطبيعي أن العامل الأكبر في تأمين سيطرة العرب على أنطاكية هو سيطرتهم على البحر بعد إنشائهم الأسطول وانتصارهم في ذات الصواري. غير أن الروم عملوا على خلق المشاكل في منطقتها بتحريضهم الجراجمة على القيام ببعض الاضطرابات مما أقلق الإدارة الإسلامية ولكنها استطاعت أخيراً أن تتغلب عليهم.

وبالقرب من أنطاكية عدد من الأماكن التي لها علاقة بحركات الجيوش. وأقرب هذه الأماكن هي قورس وكانت «كالمسلحة لأنطاكية، يأتيها في كل عام طالعة من جند أنطاكية ومقاتلتها، ثم حوّل إليها ربع من أرباع أنطاكية وقطعت الطوالع عنها»[1].

أما الجناح الشرقي من الثغور التي كانت في السنين الأولى من الفتح الإسلامي فكانت تقع أمام الجزيرة وعلى جانبي الفرات، وأهلها عموماً غير مؤيدين للروم، ولذلك لم يلتحق بهم من أهلها إلا القليل، كما كانت فيها أراضٍ زراعية واسعة وهي أبعد من ثغور الجناح الغربي عن القسطنطينية وقواعد الهلنستيين غير أنها كانت المنفذ الذي يستطيع الروم إذا اخترقوه أن يفصلوا بلاد الشام عن الجزيرة، ويهددوا العراق خاصة، ولذلك كان أكثر تعرضاً لهجمات الروم وخصوصاً في أوائل العصر العباسي.

واهتم العرب بتعزيز مواقعهم في هذه البلاد، ولما فتح أبو عبيدة بالس وكان أكثر أهلها قد جلوا إلى بلاد الروم، رتب بها «جماعة من المقاتلة وأسكنها قوماً من العرب الذين كانوا بالشام فأسلموا بعد قدوم المسلمين الشام، وقوماً لم يكونوا من البعوث، نزعوا من البوادي من قيس، وأسكن قاصرين قوماً ثم رفضوها أو أعقابهم»[2].

«ثم لما ولي معاوية الشام والجزيرة لعثمان بن عفان (رض) أمره أن ينزل العرب بمواضع نائية عن المدن والقرى، ويأذن لهم في اعتمال الأرضين التي

---

(١) فتوح البلدان ١٤٨.
(٢) فتوح البلدان ١٥٠

لا حق فيها لأحد، فأنزل بني تميم الرابية، وأنزل المازحين والمديبر أخلاطاً من قيس وأسد وغيرهم، وفعل ذلك في جميع نواحي ديار مضر، ورتب ربيعة في ديارها على ذلك، وألزم المدن والقرى والمسالح من يقوم بحفظها ويذبّ عنها من أهل العطاء ثم جعلها مع عماله»[1]

وكانت منبج ذات موقع جغرافي متميز، فهي تقع على الفرات، ويمر منها الطريق بين بلاد الجزيرة وبلاد الشام، وقد جدد جسرها في خلافة عثمان، وكانت تسلكه الصوائف[2].

ولما توسعت الدولة في أوائل خلافة عثمان وفتحت ملطية «رتب فيها معاوية رابطة من المسلمين مع عاملها، وقَدِمَها معاوية وهو يريد دخول الروم فشحنها بجماعة من أهل الشام والجزيرة وغيرهما. فكانت طريق الصوائف، ثم ان أهلها انتقلوا عنها في أيام عبد الله بن الزبير، وخرجت الروم فشعثتها ثم تركتها، فنزلها قوم من النصارى من الأرمن والنبط»، وقد عمر المسلمون على أثر ذلك طرندة، غير أن عمر بن عبد العزيز أعاد إعمار ملطية[3].

ثم فتح العرب مرعش في ولاية أبي عبيدة بن الجراح وغزا منها سفيان بن عوف بلاد الروم، ثم أسكنها معاوية «جنداً، فلما كان موت يزيد بن معاوية كثرت غارات الروم عليهم فانتقلوا عنها «غير أن عمارتها جددت فيما بعد فكانت من أهم ثغور المسلمين»[4].

وفتح حبيب بن مسلمة حصن الحدث، وكان معاوية يتعهده بعد ذلك ثم هدمه الروم في خلافة مروان وأجلوا عنه أهله[5]. وأسكن معاوية قاليقلا ألفي رجل وأقطعهم بها القطائع وجعلهم مرابطة[6].

---

(1) فتوح البلدان ١٤٩.
(2) فتوح البلدان ١٤٩.
(3) فتوح البلدان ١٨٤.
(4) فتوح البلدان ١٨٧.
(5) فتوح البلدان ١٨٨، ياقوت ٢/٢١٨ ـ ٩
(6) فتوح البلدان ١٩٧.

وقد ساعد تحصين المواقع التي تقع على المنافذ الرئيسة بين دولتي الروم والعرب على تقوية الدفاع عن الدولة الإسلامية، واقتصر نشاط الروم في هذه المنطقة على الإغارة على هذه الحصون وتدميرها، ولم يقوموا بحركات واسعة تتغلغل في داخل البلاد الإسلامية، مما يظهر شعورهم بالعجز عن ذلك.

أما العرب فقد تابعوا نشاطهم الحربي، فكانوا يرسلون حملات سنوية للإغارة على أطراف بلاد الروم، وكان عماد هذه الحملات الجيش العربي المقيم في بلاد الشام، ويعتبر الاشتراك فيها مصدراً للفخر وجهاداً مبروراً فضلاً عن الغنائم التي كثيراً ما تظفر بها هذه الحملات. واهتم الخلفاء بهذه الحملات فكانوا يختارون لقيادتها قواداً يتميزون بالشجاعة والمهارة والخبرة، وكثيراً ما اختاروا لقيادتها رجالاً من أولاد الخلفاء أو أقاربهم، مثل يزيد بن معاوية ومسلمة بن عبد الملك وعبد الله بن عبد الملك. وقد قاد بعض الخلفاء بأنفسهم بعض هذه الحملات.

وأغلب هذه الحملات كانت تنفذ في الصيف، فتسمى الصوائف، ولكنها كانت تنفذ أحياناً في الشتاء فتسمى الشواتي، غير أن الشواتي كانت قليلة نسبياً بسبب صعوبات المناخ والثلوج التي تكوّن أخطاراً إضافية عليها.

كانت هذه الحملات تخرج من القواعد الرئيسة في أنطاكية وملطية وتتوغل في الأطراف الواقعة قرب حدود الدولة، غير أن بعض الحملات توغلت في أعماق الأناضول، ففي سنة ٢٥ قاد معاوية بن أبي سفيان حملة توغلت حتى وصلت عمورية[١].

وأظهرت هذه الحملات قوة العرب الهجومية ونشاطهم وحماستهم في قتال الروم، وساعدت على بقاء الروح القتالية، وأتاحت المجال لتدرب الجيش، كما أنها كانت مصدراً لإقلاق الروم. غير أن هذه الحملات لم تكن ذات أثر مصيري حاسم ما دامت لا تستهدف القسطنطينية ذاتها. وقد أدرك الخلفاء

---

(١) فتوح البلدان ١٦٣.

الأمويون ذلك، وقاموا بحملتين كبيرتين استهدفت كلٌ منهما فتح القسطنطينية والقضاء على دولة الروم.

الصوائف والشواتي

إن انسحاب جيش يزيد من حصار القسطنطينية لم يوقف معاوية عن متابعة إنفاذ الشواتي إلى بلاد الروم طوال السنوات الست التالية من خلافته. وذكرت المصادر العربية أسماء قادة الحملات ولكنها لم تذكر وجهاتها.

وظلت البحرية الإسلامية نشطة في هذه الفترة. ففي سنة ٥٣هـ فتح المسلمون رودس ونزلوها «وزرعوا واتخذوا أموالاً ومواشي يرعونها حولها، فإذا أمسوا أدخلوها الحصن ولهم ناطور يحذرهم ما في البحر ممن يريدهم بكيد، فكانوا على حذر منهم، وكانوا أشد شيء على الروم، فيعترضونهم في البحر فيقطعون سفنهم، وكان معاوية يدرّ لهم الأرزاق والعطاء، وكان العدو قد خافهم»[1].

وفي السنة التالية، أي سنة ٥٤هـ فتح المسلمون جزيرة أرواد، وأقاموا فيها[2].

وفي سنة ٦٠ دخل المسلمون رودس وهدموا مدينتها وحمل أهل مصر إلى رودس الطعام[3].

ولما وَلِيَ يزيد الخلافة أمر بسحب الحاميات الإسلامية من الجزر التي احتلوها، بما في ذلك رودس، وأرواد وقبرص[4]، ولعله كان مدفوعاً إلى ذلك بإدراكه قوة الروم وقدرة عاصمتهم على الصمود وإحساسه بالمشاكل المتوقعة من بيعته.

(١) الطبري ٢/١٥٧، تاريخ خليفة ٢١٤.
(٢) الطبري ٢/١٦٣.
(٣) الطبري ٢/١٩٦، تاريخ خليفة ٢١٨.
(٤) الطبري ٢/١٥٧، ١٦٣.

واستغل الروم الانقسامات التي حدثت في الدولة الإسلامية على أثر وفاة يزيد، وحاولوا استعادة بعض الأراضي من الدولة الإسلامية، فأعادوا تنظيم بلادهم، ووضعوا على أطراف حدودهم مع الإسلام حاميات قوية منحوا أفرادها الإقطاعات وزودوا قوادها بسلطات عسكرية وإدارية لتمكينهم من الصمود وحماية الحدود. وقامت أساطيلهم بمهاجمة عدد من المدن الساحلية العربية كعسقلان وصور وأنطاكية وحرضوا الخزر على الهجوم على أرمينية، والبربر على الثورة في شمال إفريقية، كما حرضوا الجراجمة على التمرد وتهديد الأمن في الشام.

ولما وَلِيَ عبد الملك بن مروان الخلافة كانت تواجهه تحديات واسعة من الثوار والمدعين بالخلافة، فاضطر إلى موادعة الروم وتعهّد بأن يدفع لهم ألف دينار أسبوعياً[١] لدرء خطرهم، كما صالح الجراجمة بأن أغراهم بالمال[٢]، وبذلك تفرَّغ لمواجهة خصومه ومعارضيه في العراق والحجاز بخاصة، وقد أفلح في التغلب عليهم والقضاء على الانقسامات، وأعاد إلى الدولة وحدتها في ظل خلافته[٣].

واهتم عبد الملك بأمر الروم، فجعل الجزيرة الفراتية وأرمينية ولاية إدارية واحدة، ونقل إليهما القبائل القيسية من الشام[٤]، وولّى عليها أخاه محمد بن مروان الذي عمل على تثبيت وتوسيع سلطان العرب في أرمينية، فازدادت أهمية هذه المناطق وأصبحت فيها قواعد المسلمين في هجماتهم على بلاد الروم، وتتابعت حملاتهم السنوية، فغزوا سمسطية (٧٣) ومرعش (٧٥، ٧٦) وأزقلة (٧٨) ومرج الشحم (٧٩) وقاليقلا (٨١) وحصن سنان (٨٥) والمصيصة (٨٤)، وكانت انطاكية أبرز القواعد التي توجهت منها حملات المسلمين.

---

(١) فتوح البلدان ١٥٩، ١٦١؛ أنساب الأشراف ٥/٢٩٩، ٣٣٩.

(٢) الطبري ٢/٧٩٦؛ فتوح البلدان ١٥٨ ـ ١٦١.

(٣) انظر عبد الأمير دكسن: الخلافة الأموية.

(٤) انظر عن الجزيرة الفراتية «فتوح البلدان»، العلائق الخطيرة لابن شداد، ج ٣، محمد المشهداني: الجزيرة الفراتية، كانارد «الحمدانيون» (بالفرنسية).

ولما وَلِيَ الوليد بن عبد الملك تابع سياسة أبيه في توجيه الحملات السنوية من تلك المناطق، ففي سنة ٨٩ تمّ فتح هرقلة، والبدندون، وفي سنة ٩٣ غزيت سمسطية، وفي غضون ذلك وسع العرب سيطرتهم على الأطراف الشمالية من أرمينية في شرق الأناضول.

وفي سنة ٨٣ بنى عبد الله بن عبد الملك طرندة بالقرب من ملطية وجعلها قاعدة لإخضاع أرمينية[١] وفي السنة التالية بنى عبد الله حصن المصيصة وشحنه بالرجال[٢].

وفي زمن الوليد كذلك فتح مسلمة حصن طوانة الواقعة عند جبال طوروس، فقطع صلة الروم بالجراجمة، كما حصّن أنطاكية وقوّى سورها ونقل إليها جواميس من العراق لتخفيف أخطار الأسود التي كانت تهدد المارة بينها وبين المصيصة[٣] وشحن أرض سلوقية، وأقطع جندها الإقطاعات[٤].

أسندت قيادة الحملات الإسلامية إلى قادة بارزين وُلّيَ بعضهم أكثر من حملة، ومن أولهم بسر بن أبي أرطاة الذي قاد ستّ حملات (ما بين ٤٣ و٥٢) وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد وقاد ثلاث حملات (٤٤، ٤٦، ٤٨) ومالك بن عبد الله الخثعمي وقاد أربع حملات (٤٦، ٥٤، ٥٨، ٦٠).

وقاد ثلاث حملات كلٌ من سفيان بن عوف الأزدي (٥٠، ٥٢، ٥٥) وفضالة بن عبيد (٤٩، ٥٠، ٥١).

وقاد حملتين كلٌ من عبد الله بن قيس الفزاري (٥٥، ٥٧) وأبي عبد الرحمن القيني (٤٧، ٤٨).

(١) فتوح البلدان ١٨٤.
(٢) فتوح البلدان ١٦٤.
(٣) فتوح البلدان ١٦٦.
(٤) فتوح البلدان ١٤٧.

وقاد حملة واحدة كلٌّ من معاوية بن صبيح (٤٥) وعبد الله بن كرز البجلي (٤٩) ومحمد بن عبد الرحمن (٥١) ومحمد بن عبد الله الثقفي (٥٢) وعبد الرحمن بن أم الحكم (٥٣) ومحمد بن مالك (٥٤) ومالك بن عمرو (٥٥) وعمرو بن محرز (٥٥) وعياض بن الحارث (٥٦) وعمرو بن يزيد الجهني (٥٨) وعمرو بن مرة الجهني (٥٩).

وقاد يزيد بن معاوية حملة على القسطنطينية (٥٠) ثم قام المسلمون بحملتهم الكبرى على القسطنطينية بقيادة مسلمة بن عبد الملك في زمن خلافة سليمان. إلا أنها لم تحقق غرضها في فتح القسطنطينية، فكانت هذه الحملة آخر محاولة جدية يقوم بها العرب لفتح القسطنطينية وإزالة دولة الروم، كما أنها كانت آخر محاولة يقوم بها الأمويون للتوغل في آسيا الصغرى، وقد اتخذ العرب منذ ذلك الوقت موقفاً دفاعياً بشكل عام.

وكان الموقف الدفاعي واضحاً عندما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة وتم انسحاب القوات العربية في زمنه، فإن هذا الخليفة أوقف التوسع في الجبهات كافة وسحب القوات الإسلامية المتوغلة في أواسط آسيا وفي شمال إسبانيا، أما على جبهة الثغور الشامية فقد حاول هدم المصيصة[1]، وهي الحصن الأمامي للقوات الإسلامية في طرف البحر المتوسط، كما أخرب طرندة، وهي الثغر المتقدم في منطقة الفرات الأعلى، واكتفى بتعمير ملطية[2]. وقد قام الروم في زمنه ببعض الهجمات على أرمينية وسواحل بلاد الشام، ولكن هذه الهجمات كانت محدودة الأثر ولم تغيِّر من اتجاهاته السياسية الجديدة، وهي إيقاف التوسع والعمل على نشر الإسلام ومعالجة المشاكل الداخلية والعمل على انسجام شعوب الدولة العربية.

ولما توفي عمر بن عبد العزيز تجددت الحروب بين العرب والروم، وقام العرب بتقوية بعض الحصون الدفاعية، فجدد هشام حصون المثقب والمورد

(١) فتوح البلدان ١٦٥، ١٦٦.
(٢) فتوح البلدان ١٨٥.

وبوقا[1]، وتقدّم بنفسه لاستنقاذ ملطية عندما هاجمها الروم[2]، وعبر الوليد بن يزيد الجسر الذي بين أضنة والمصيصة[3]، كما أعاد بناء حصن زبطرة[4].

ولما وَلِيَ مروان بن محمد الخلافة انشغل بإخماد الثورات التي قامت ضده فاستغل الروم ذلك وحاصروا مرعش وأجبروا أهلها على الجلاء[5]، كما هدموا حصون الحدث[6]، وزبطرة[7]. ولكن مروان استطاع استعادة مرعش وتجديد أسوارها.

غير أن هجمات الروم تجددت على حدود الدولة العربية، مستفيدة من فرصة انشغال العرب بالاضطرابات الداخلية التي حدثت نتيجة انقسام البيت الأموي في الشام، والانتفاضات المتعددة التي حدثت في مختلف أنحاء الدولة وخصوصاً في خراسان حيث أعلن العباسيون ثورتهم التي توسعت وتقدمت حتى أدت أخيراً إلى زوال الدولة الأموية.

---

(١) فتوح البلدان ١٦٥ ـ ١٦٦.
(٢) فتوح البلدان ١٧٩.
(٣) فتوح البلدان ١٦٧.
(٤) فتوح البلدان ١٩١.
(٥) فتوح البلدان ١٨٨.
(٦) فتوح البلدان ١٨٩.
(٧) فتوح البلدان ١٩٠.